

# الباب الثامن

## آلهة اليونان

### الفصل الأول

#### أصل الشرك

إذا بحثنا عن العناصر الموحدة في حضارة هذه المدائن المتفرقة وجدنا منها خمسة عناصر جوهرية : لغة مشتركة ذات لهجات محلية ؛ وحياة ذهنية مشتركة لا يعرف من رجالها في الأدب والفلسفة والعلوم خارج حدود بلادهم السياسية إلا كبارهم ، وشغف مشترك بالألعاب الرياضية بنفسون به في المباريات التي تقام بين الأفراد في المدن نفسها أو بين الدول بعضها وبعض ، وحب للجمال تعبر عنه المدن بأشكال من الفن عامة بين الجماعات اليونانية كلها ، وطقوس وعقائد دينية موحدة بعض التوحيد .

وكان الدين عاملا في التفرقة بين اليونان بقدر ما كان عاملا في وحدتهم . فقد كان من وراء عبادة آلهة الأولمبس العامة البعيدة ، وهي العبادة التي كان فيها قسط كبير من الأدب والحجامة ، عبادة أقوى منها للآلهة وللقوى التي تدين بالطاعة لزيوس . وكانت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية تغذي الشرك وتجعل التوحيد مستحيلا . فقد كان لكل أسرة في أيام اليونان القديمة إلهها الخاص ، توقد له في البيت النار التي لا تنطفئ أبداً ، وتقرب له قربان من الطعام والخمر قبل كل وجبة . وكان هذا الاقتسام المقدس للطعام بين الآدميين والآلهة أول الأعمال الدينية الأساسية التي تعمل في البيت . وكان المولد والزواج والموت تُخلع عليها هالة

من القداسة بالطقوس القديمة أمام النار المقدسة ، وبهذه الطريقة كان الدين عاملاً في خلق الشعر الصوفي وفي إكساب الحداثات الرئيسية في الحياة البشرية مسحة من الوقار أعانت على استقرارها وثباتها . وكذلك كان لكل جماعة بطناً كانت أو عشيرة أو قبيلة أو مدينة إلهها الخاص بها ، فكانت مدينة أثينة تعبد الإلهة أثينا ؛ وإلوسيس تعبد دمتر ، وساموس تعبد هيرا ، وإفسوس تعبد أرتميز ، وپوسدونيا تعبد پوسيدن . وكان وسط المدينة وأعلى مكان فيها ضريح إلهها ، وكان الاشتراك في عبادة إلهها رمز مواطنيها وميزتهم والواجب المفروض عليهم . وإذا ما خرجت المدينة للحرب حملت معها في مقدمة جيوشها صورة إلهها وشعاره ، ولم تكن تخطو خطوة خطيرة إلا بعد استشارته بسؤاله عما يخبئه الغيب لها . وكان لها عليه في نظير هذا أن يحارب في صفها ، وكان يبلو لأهلها أحياناً أنه قد يتجلى لهم في مقدمة الجيش أو فوق رماح الجنود . ولم يكن النصر مقصوراً على غلبة مدينة لمدينة بل كان يشمل فوق ذلك غلبة إله لإله . وكانت المدينة ، كما كانت الأسرة وكما كانت القبيلة ، تحتفظ على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة ، ترمز لحياة منشئها وأبطالها القوية الخالدة ؛ وكان مواطنوها يجتمعون في مواسم معينة ليطلعوا جميعاً أمام هذه النار . وكلما كان أب الأسرة هو أيضاً كاهنها ، كذلك كان حاكم المدينة الأكبر أو أركانها كبير كهنة في دين الدولة ، وكان الإله يخضع على سلطانه وأعماله كلها ثوباً من القداسة . وهكذا استحال الإنسان بفضل تجنيد الآلهة على هذا النحو من صياد جوال إلى مواطن مستقر .

وحرر الاستقلال المحلي خيال اليونان الذي من القيود فأخرج للعالم أساطير دينية موفورة ومجموعة كبيرة من الآلهة . فكان كل شيء وكل قوة في الأرض أو السماء ، وكل نعمة أو نقمة ، وكل صفة - ولو كانت رذيلة - من صفات الإنسان ، تمثل إلهاً في صورة بشرية عادة . وليس ثمة دين يقرب آلهته من

الآدميين قرب آلهة اليونان . وكان لكل حرفة ، ولكل مهنة ، ولكل فن ، إله خاص أو راع حارس ؛ بلغة هذه الأيام . وكان عند اليونان فضلاً عن هذا شياطين ، ونساء مجنحة ، وآلهة انتقام ، وجن ، وأرباب بشعة المنظر ، وإلهات ذوات صوت شجي يسلب العقول ، وحور عين في البحار والغاب لا يقل عديدهن عن سكان الأرض من الآدميين . وفي هذه البلاد بنوع خاص لا تبقى حاجة للسؤال القديم « هل الدين من وضع الكهنة ؟ » . ذلك أن من غير المعقول أن أية مؤامرة يدبرها رجال الدين الأولون تستطيع أن تخرج هذه الكثرة من الآلهة . وما من شك في أن من أكبر النعم التي ينعم بها هؤلاء الأقوام أن يكون لهم كل أولئك الآلهة ، وكل هاته القصص الفتانة الساحرة ، وكل هذه الأضرحة المقدسة والحفلات المهيبة المرحة . لقد فطر الإنسان على أن يعبد آلهة متعددة كما فطر على الزواج من نساء متعدّدات ، ولا يقل عمر فطرته الأولى عن فطرته الثانية ، لأنها توأم كل الموامة ما في العالم من تيارات متعارضة . وإن مسيحية البحر المتوسط في هذه الأيام لا يعبد فيها الله بقدر ما يعبد فيها الأولياء والقديسون . ذلك أن الشرك هو الذي يوحى إلى حياة السذج بالأساطير وما فيها من خيال وسلوى ؛ وبهب النفس الذليلة المعونة والراحة واللين لا تجروا على انتظارهما من كائن أعلى رهيب بعيد لا تستطيع الوصول إليه (\*) .

وكان لكل إله من الآلهة أسطورة (Mythos) أي قصة ، متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة ، أو تفسر الطقوس التي تقام تكريماً له .

---

(\*) لا نوافق المؤلف على قوله إن الشرك فطرة فطر الناس عليها إلا إذا كان يقصد بالفطرة صفة الإنسان الجاهل الساذج صاحب العقل غير المستنير . ودليلنا على هذا نزعة الإنسان إلى الإيمان بوحداية الله واقتراجه من هذه الوحدانية بقدر استنارة عقله . كذلك لا نرى ما يراه من أن النفس البشرية لا تعبد المعونة والراحة إلا في الأساطير وفي الشرك ، بل نعتقد أن في وسعها أن تعبد في رعاية الله الرحمن الرحيم القريب من عباده المحب لدعوة الداعي إذا دعاه .  
( المترجم )

وقد أصبحت هذه الأساطير التي نشأت نشأة تلقائية مما في المكان ومما لدى الناس من معارف ، أو كانت من وضع الشعراء الدوارين وزخرفهم ، أصبحت هذه الأساطير عقيدة اليونان الأولين ، ولفستهم ، وآدابهم ، وتاريخهم ، جميعاً . فنها استمدوا الموضوعات التي زينوا بها مزهرياتهم ، وهي التي أوحت إلى الفنانين ما لا يحصى من الرسوم ، والتماثيل ، والنقوش . وقد ظل الناس إلى آخر أيام الحضارة الهيلينية يخلقون الأساطير ، بل يخلقون الآلهة أنفسهم ، رغم ما أنتجته بحوثهم الفلسفية ، ورغم محاولات عدد قليل منهم دعوة الناس إلى التوحيد . لقد كان في وسع رجال من أمثال هرقليس أن يعدوا أمثال هذه الأساطير مجرد مجازات وتشابيه ، وفي وسع آخرين أمثال أفلاطون أن يعدلوا ويوقفوا بينها وبين ما تقبله العقول ، وفي مقلود رجال من أمثال زنوفانيز أن ينددوا بها وينبذوها ؛ غير أن پوزنياس ، حين طاف ببلاد اليونان بعد خمسة قرون من عهد أفلاطون ، وجد الخرافات والأساطير التي كانت تثير الحمية في قلوب الأهلين في عصر هومر لا تزال حية قوية . ذلك أن عملية تشعير الأساطير ، وتشعير (\*) الدين عملية طبيعية ، تحدث في هذه الأيام كما كانت تحدث على الدوام في العصور الحالية ؛ ونعمة نسبة للوفيات ونسبة للمواليد بين الآلهة . فالألوهية كالطاقة تبقى كبيتها مهما تغيرت صورتها لانكاد تنقص أو تزيد خلال الأجيال المتعاقبة (\*\*).

(\*) صياقتها شعراً . ( المترجم )

(\*\*) للآراء التي يمرضها المؤلف في هذا الفصل مؤيدون ومعارضون . وقد أثرنا أن نضعها أمام القراء ونترك لهم معارضتها أو تأييدها . ( المترجم )

## الفصل الثاني

### سجل الآلهة

في وسعنا أن نلقى شيئاً من الترتيب والوضوح على هذا الحشد الكبير من الآلهة إذا نحن قسمناه تقسيماً مصطنعاً إلى سبع مجموعات : آلهة السماء ، وآلهة الأرض ، وآلهة الخصب ، والآلهة الحيوانية ، وآلهة ما تحت الأرض وآلهة الأسلاف أو الأبطال ، والآلهة الأولمبية . وأما « أسماؤها جميعاً فما يشق على الإنسان ذكرها » كما يقول هزيرود<sup>(١)</sup> .

( ١ ) وكان إله الغزاة اليونان في بادئ الأمر ، على ما نستطيع أن نتبينه من الأساطير ، هو إله السماء العظيم المختلف الصور . ويشبه اليونان في هذا الهنود القديين . ثم تطور هذا الإله شيئاً فشيئاً حتى أصبح هو أورانونس أو السماء نفسها ، ثم أضحي « مرسل السحاب » ، مسقط المطر ، جامع الرعد ، زيوس . وإذا كانت تلك البلاد تنال فوق كفايتها من ضوء الشمس ، ولكنها ظمأى للمطر ، فإن إله الشمس هليوس لم يكن له فيها شأن كبير ، ولذلك كان من الآلهة الصغرى . وقد صلى له أجمنون ودعاه لمعونته<sup>(٢)</sup> ، وكان الاسبارطيون يضحون له بالخليل لتجرعته الملتببة في قبة السماء<sup>(\*)</sup> ، وكان أهل رودس حين اضطبغت بلادهم بالصبغة اليونانية يعظمون هليوس ، ويعدون له كبير آلهتهم ، ويلقون في البحر كل عام أربعة جياد وعربة ليستخدمها في تجواله ، وأقاموا الهيكل الضخم الذائع

---

(\*) وطلب فينونون Phaéton ( المتلألئ ) ابن هليوس أن يسوق عربة الشمس في عرض السماء . ولكنه اندفع يسوقها بهور ، وكاد يشعل النار في العالم كله فصمغه البرق ، وسقط في البحر . ولعل اليونان ساتوا هذه القصة ، كما ساتوا قصة إكاروس Icarus ، ليعطوا بها الشباب .

الصيت ، وكاد أنكسجرس يفقد حياته في أثينة بركليز نفسها ، لأنه قال إن الشمس ليست لها وإنما هي كرة من النار لا أكثر . ثم زالت عبادة الشمس شيئاً فشيئاً حتى لم يكدها أثر في تاريخ اليونان القديم ، وكان القمر أقل من الشمس شأناً ، والكواكب والنجوم أقل منه ومنها .

( ٢ ) وكانت الأرض ، لا السماء ، موطن معظم الآلهة اليونانية . فكانت الأرض نفسها في بادئ الأمر هي الإلهة جي Ge أو جيا Gaia الأم الصابرة السمحة الحزيلة العطاء ، التي حملت حين عانقها أورانوس - السماء - فنزل المطر . وكان يسكن الأرض نحو ألف إله آخر أقل من جي شأناً ، في مائها وفي الهواء المحيط بها : منها أرواح الأشجار المقدسة ، وخاصة شجرة البلوط ، ومنها النريديات Nereids ، والنيادات Naiads ، والأوقيانوسيات في الأنهار والبحيرات والبحار ، وكانت الآلهة تتفجّر من الأرض عيوناً ، أو تجرى جداول عظيمة مثل الميندر أو الاسبركيوس Spercheus ؛ وكان للريح آلهة مثل بورياس Boreas ، وزفر Zephyr ونوتس Notus ، ويوروس Eurus ، وسيدها إيوس ؛ وكان من آلهة الأرض بان العظيم ، ذو القرنين ، المشقوق القدمين ، الشبق ، المغذى ، البسام ، إله الرعاة والقطعان ، والغابات والحياة البرية ، الكامن فيها ، والذي تُسمع صفارته في كل جدول وواد ، والذي تبعث صيحته الفزع (\*) في كل قطع لا يعنى به ، والذي يقوم على خدمته جنيات الغاب والحراج ، وتلك الجنيات المعروفة بالسليبي Sileni وهي مخلوقات نصف جسمها معز ونصفه بشر . وكان في كل مكان في الطبيعة آلهة ، وكان الهواء غاصاً بالأرواح الطيبة أو الخبيثة لا تكاد « تجد فيه شقا فارغا تستطيع أن تدفع فيه طرف ورقة نبات » كما قال شاعر غير معروف (٥) .

( ٣ ) وإذ كانت أعجب قوى الطبيعة وأقواها هي قوة التكاثر ، فقد كان

( ٥ ) إن كلمة Panie أى المرشقة من الإله بان . ( المترجم )

طبيعياً أن يعبد اليونان ، كما كان يعبد غيرهم من القدامى ، رمزي الإخصاب  
الرئيسيين في الرجل والمرأة إلى جانب عبادتهم خصب الآلهة . ولهذا كان  
قضب الرجل وهو رمز الإنتاج يظهر في طقوس ديمتر ، وديونيسوس ،  
وهرمس ، وحتى في طقوس أرتيمس الطاهرة<sup>(٦)</sup> . ويتكرر ظهور هذا  
الرمز في النحت والتصوير في أهم عصر من عصورها : كراراً فاضحاً ، بل  
إن عيد ديونيشيا العظيم ، وهو الاحتفال الديني الذي كانت تمثل فيه  
المسرحيات اليونانية ، كان يفتتح بموكب تحمل فيه رموز قضبان الرجال  
ترسل الكثير منها المستعمرات الأثينية شاهداً على صلاحها وتقواها<sup>(٧)</sup> .  
وما من شك في أن هذه الحفلات كانت تثير الكثير من الفكاهات الجنسية  
البذيئة ، كما تدلنا على ذلك كتابات أرسطوفان ؛ ولكن كثرتها كانت خالية  
من هذه البذاءة ، ولعلها كانت تثير الشهوة الجنسية في الرجال والنساء  
وتساعد على كثرة النسل<sup>(٨)</sup>

وكانت أحط ناحية من نواحي مراسم الإخصاب تظهر في العهود  
التي انتشرت فيها الحضارة اليونانية الصبغة والحضارة اليونانية ، والتي  
كان يعبد فيها بريابوس Priapus الذي ولد نتيجة لاتصال ديونيسوس  
وأفرديتي ، والذي كان الفنانون يزينون بصورته المزهريات وجدران  
المباني في بومبي Pompeii . وكان أظرف من هذه المراسم وأعف في موضوع  
التناسل نفسه إجلال الإلهات التي ترمز إلى الأمومة . فقد كانت أركاديا ،  
وأرجوس ، وإلوسيس ، وأثينة ، وإفسوس ، وغيرها من الأماكن  
تجلب أعظم الإجلال لإلهات معظمهن لا أزواج هن ، كمن في أغلب الظن  
أثراً من آثار عصر ينسب الأبناء فيه إلى الأمهات قبل أن يحل عصر  
الزواج<sup>(٩)</sup> ؛ ولقد كان الاعتراف بسلطان زيوس الإله الأب على سائر  
الآلهة رمزاً لانتصار مبدأ سيطرة الآباء على الأمهات<sup>(١٠)</sup> . ولعل سبق النساء على

(٥) حل القارئ أن يلاحظ عدم وجود إلهات أمهات في المجتمعات ذات السيفنة الأبرية  
القرية كالمجتمعات اليهودية والإسلامية والمسيحية والبروتستنتية ( المؤلف ) . يصعب علينا أن

الاشتغال بالزراعة ، وهو السبق الذي يرجحه الكثيرون ، قد ساعد على إيجاد أعظم إلهة من هاته الإلهات الأمهات ، وهى ديمتر إلهة الحنطة أو الأرض المنزرعة . ومن أجل الأساطير اليونانية التى تقصها فى أحسن عبارة ترينيمه ديمتر وهى الترنيمة التى كانت تعزى فى وقت من الأوقات إلى هومر نفسه ، نقول إن من أجل هذه الأساطير أسطورة تصف كيف اختطف بيلوتو Pluto إله العالم السفلى برسفونى ابنة ديمتر ونزل بها إلى الجحيم ، وكيف أخذت أمها الخزينة تبحث عنها فى كل مكان حتى عثرت عليها وأقنعت بيلوتو أن يسمح لابنتها بأن تعيش على ظهر الأرض تسعة أشهر فى كل عام - وذلك رمز ظريف لموات التربة السنوى وتجديدها . وإذ كان أهل إلوسيس قد عطفوا على ديمتر المنتكرة وهى « جالسة فى الطريق فى أشد حالات الحزن والكره » ، فقد علمتهم هم وأهل أتكا سرّ الزراعة ، وأرسلت تريبتولوس Triptolemus ابن ملك إلوسيس لينشر هذا الفن بين بنى الإنسان . وهذه الأسطورة تفتق فى جوهرها وأسطورة إيزيس Isis وأوزيريس Osiris فى مصر ، وأسطورة تموز وإشتار فى بابل ، وأسطورة عشروب وأدنيس فى سوريا ، وسيبيل وأتيس فى فريجيا . وقد بقيت طقوش الأمم طوال عصر اليونان العظيم ، ثم عادت إلى الحياة من جديد فى صورة تقديس مريم أم الإله .

(٤) وكانت بعض الحيوانات فى تاريخ اليونان المبكر تعظم وتتحذ أنصاف آلهة - إذا جاز هذا التعبير . وكان السبب فى أنها لم ترق إلى مرتبة الآلهة الكاملة أن الدين اليونانى كان فى العصر الذى ازدهر فيه فن النحت ديناً آدمياً إلى حد لا يسمح بوجود آلهة حيوانية كثيرة بالصورة التى نجدتها فى مصر والهند ؛ ولكن أثراً من آثار ما قبل هذا العصر الزاهر يبدو لنا فى كثرة الجمع بين الحيوان والإله فى بعض التماثيل . ولقد كان الثور حيواناً مقدساً لقوته وقدرته ، وكثيراً

---

= نفهم ما يرمى اليه المؤلف بقوله عدم وجود إلهات فى الإسلام وهو دين التوحيد الذى لا يترف بالإنسانية إلا لله وحده . ( المترجم )

ما كان يوصف بأنه رفيق لزيوس وديونيسس ، أو صورة لها تنكرا فيها ، أو رمزاً لها ، وربما كان إلها قبلهما<sup>(١٠)</sup> ولعل « هيرا ذات العين البقرية » ، كانت هي أيضاً بقرة مقدسة<sup>(١١)</sup> . وكان الخنزير أيضاً مقدساً لكثرة تناسله ، وكان يجمع بينه وبين دمتر الظرفية . وكان القربان الظاهر الذي يقدم لها هي في أحد أعيادها المعروف بعيد التسموفوريا *Thesmophoria* خنزيراً ، أو لعل القربان كان يقدم إلى الخنزير نفسه<sup>(١٢)</sup> . وفي عيد الديازيا *Diasia* كان هذا القربان يقرب لزيوس في الظاهر ، ولكنه في الحقيقة كان يقرب إلى أفعى تسكن في باطن الأرض تسمى وقتئذ باسمه تكريماً لها<sup>(١٣)</sup> . وسواء أكان تقديس الأفعى لأنها في ظنهم لا تموت ، أم لأنها ترمز إلى القدرة على التناسل والإنتاج ، فإننا نراها تنتقل في صورة إلهة من أفعى كريت إلى أثينة القرن الخامس ؛ فقد كانت أفعى مقدسة تقم في هيكل أثينة على الأكروبوليس ، وكان يقدم إليها في كل شهر كعكة مقدسة زلني إليها واستدراً لعطفها . وكثيراً ما ترى الأفعى في الفن اليوناني حول تماثيل هرمس ، وأبلو ، وأسكايوس<sup>(١٥)</sup> ؛ وقد صوّر فيدياس أفعى ضخمة محاطة بإكليل من الزهر في درع « أثيني برثنوس » ، وتغطي الأفاعى الجزء الأكبر من تماثيل أثينا الفرنيزية<sup>(١٦)</sup> . وكثيراً ما كانت الأفعى تتخذ رمزاً للإله الحارس للبياكل والمنازل أو صورة لهذا الإله<sup>(١٧)</sup> ، وربما كانت كثرة وجودها حول المقابر سبباً في اعتقاد الناس أنها روح الموتى<sup>(١٨)</sup> . ويعتقد بعضهم أن الألعاب الدلفية قد احتفل بها في بادئ الأمر تكريماً لأفعى دلفي الميتة .

(٥) وكانت أكثر الآلهة رهبة تعيش تحت الأرض . ففي المغارات والشقوق وأمثالها من الفتحاح السفلى ، كانت تعيش تلك الآلهة الأرضية التي لم يكن اليونان يعبدونها بالنهار عبادة تنطوي على الحب والإجلال ، بل كانوا يعبدونها ليلا عبادة مصحوبة بأناشيد وطقوس تتم عن التوبة والملح . وكانت هذه القوى غير البشرية هي المعبودات الحقيقية الأولى لبلاد اليونان ، وكانت أقدم من

معبودات الهيلينيين ، بل لعلها أقدم من معبودات المسيحيين الذين نقلوها في أغلب الظن إلى بلاد اليونان نفسها . ولو أننا استطعنا أن نتبعها إلى أصلها الأول لكان في وسعنا أن نصل إلى أنها كانت في بدايتها الأرواح المتتمة للحيوانات التي طردها بنو الإنسان إلى الغابات أو إلى ما تحت الأرض في أثناء تقدمهم وتكاثرهم . وكان أعظم هذه الآلهة الأرضية هو زيوس الأرضي ؛ وزيوس هنا اسم نكرة لا يعني أكثر من إله<sup>(١٩)</sup> . وكان يسمى أحيانا زيوس ميلكيوس Meilichios أى زيوس الحَيَّير ؛ ولكن الوصف هنا أيضاً وصف خادع يقصد به استرضاء هذا الإله الذي كان بصور في صورة أنعى رهبة . وكان هاديز Hades رباً ما تحت الأرض أخوا لزيوس وعند أخذ اسمه . وأراد اليونان أن يسكنوا غضبه فسموه بلوتو أى واهب الوفرة ، لأنه كان في مقدوره أن يبارك أو يبئد جنود كل ما ينبت على سطح الأرض<sup>(\*)</sup> . وكان أشد من بلوتو روعة ورهبة الإلهة هكتي Hecate ، وهى روح خبيثة تخرج من العالم السفلى وتسبب البؤس والشقاء بعينها الحاسدة الشريرة لكل من تزوره من الخلائق . وكان القليلو العلم من اليونان يقربون لها الجراء ليعلدها عنهم<sup>(٢١)</sup> .

( ٦ ) وكان الموتى قبل عصر اليونان المجيد يعدون أرواحاً قادرة على أن تفعل للناس الخير والشر ، وتسترضى بالقرابين والصلاة . ولم تكن هذه الأرواح آلهة بالمعنى الصحيح ، ولكن الأسرة اليونانية البدائية كانت تعظم موتاها تعظيماً يفوق تعظيمها أى إله من الآلهة ، شأنها في هذا شأن الأسرة الصينية<sup>(٢٢)</sup> . وكان اليونان في عصرهم الزاهر يرهبون هذه الأشباح الغامضة أكثر مما يحبونها ، وكانوا يسترضونها بطقوس ومراسم يقصد بها إبعادها واتقاء شرها ، كما كانوا يفعلون

---

( \* ) وكان بلوتس Plutus إله الثروة صورة من بلوتو . وكانت الثروة عند اليونان الأولين تتخذ في أكثر الأحيان صورة الحبوب المنزوعة في الأرض أو مخزونة في جوار ، وكانت في كلتا الحالتين تحت حماية بلوتو .

في عيد أنثستريا Anthesleria . وكانت عبادة الأبطال امتداداً لعبادة الموتى ؛ فكان في وسع الآلهة أن تهب العظيم أو الشريف ، أو الرجل الجميل أو المرأة الجميلة ؛ الحياة الخالدة فتجعله أو تجعلها من بين الآلهة الصغرى . وكذلك كان سكان أولبيا يقربون القرابين في كل عام إلى هوداميا Hippodameia ؛ وكانت كستدرا Cassandra تعبد في لوكترا Leuctra اللكونية Laconian ، وهلز في اسبارطه ، وأوديب في كولونوس Colonus وكان يحدث أحياناً أن ينزل الإله ويتقمص جسم إنسان ، فيستحيل هذا الإنسان إلهاً ، وقد يتصل الإله اتصالاً جنسياً مع امرأة من الآدميين فتلد بطلاً - إلهاً كما فعل زيوس مع أكتينا فولدت هرقل . وكان كثير من المدن والجماعات ، وأبناء الحرف أنفسهم ، يصلون أنسابهم ببطل من أبناء الآلهة ؛ فكان أطباء اليونان مثلاً يصلون نسبهم إلى أسكليبيوس . وكان الإله في أول الأمر من الأسلاف أو الأبطال الموتى ، كما كان المعبد في الأصل قبرا ، ولا تزال الكنيسة حتى الآن في معظم البلاد مكاناً تحفظ فيه آثار الموتى القديسين .

ويمكن القول بوجه عام إن اليونان لم يكونوا يفرقون بين الآدميين والآلهة بقدر ما نفرق نحن بينهم ؛ فقد كان كثير من آلهتهم لا يقلون في آدميتهم عن القديسين عندنا ، اللهم إلا في مولدهم ، وكانوا قريبين إلى عبادهم قرب القديسين إلينا ؛ وكان بعضهم مثل ديونيسس يموتون وإن سموا بالخالدين .

## ٢ - الآلهة الأولمبية

كانت هذه الآلهة كلها في المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان وإن لم تكن حتماً في المرتبة الثانية من التعظيم . ترى لأي سبب لانسمع في شعر هومر عن هذه الآلهة إلا القليل ، ولأي سبب نسمع عن الآلهة الأولمبية الشيء الكثير ؟ أكبر الظن أن مرد هذا إلى أن آلهة أولمبس قد جاءت إلى البلاد مع الآخمين

والدورين وزلزلت عروش الآلهة الميسينية والأرضية ، وغلبتها كما غلبت من كانوا يعبدونها . وفي وسعنا أن نشاهد ما حدث للآلهة الأولى في دودونا **Dodona** ودلفي حيث حل زيوس في المدينة الأولى محل چيا وحل أبلو محلها في الحالة الثانية . على أن الآلهة المغلوبة لم تمنح من الوجود محوا تاما بل بقيت خاضعة للآلهة الجديدة تأتمر بأمرها إذا صح أن نتحدث عن شئون الآلهة بمثل هذا الحديث ، فانزوت ذليلة تحت الأرض ولكنها ظلت موضع التبجيل من عامة الشعب ؛ بينما كانت الآلهة الأولمبية المنتصرة تتقبل وهي مستوية على عروشها في أعلى الجبل صلوات عبادها الأشراف . وهذا هو السبب في أن هومر الذي كان يكتب للصفوة المختارة لا يكاد يحدثنا بشيء عن آلهة الأرض . وهكذا أعان هومر وهزيود والمثالون الفاتحين أصحاب السلطة السياسية العليا على نشر عبادة الآلهة الأولمبية . وقد حدث في بعض الحالات أن اتحدت الآلهة الصغرى أو امتزجت بالكبرى ، وأصبحت من حاشيتها أو أتباعها ، كما كانت الدول الصغرى تنضم من حين إلى حين إلى الدول الأكبر منها أو تخضع لحكمها . وهكذا خضعت جنيات الآجام صغارها وكبارها لديونيس ، وخضعت حور البحار لپوسيدن كما خضعت الأرواح التي تقطن الغابات لأرتميس ، واختفت الطقوس والأساطير الممجبة شيئاً فشيئاً على مر الأيام ؛ وحلت محل الأساطير المضطربة التي كانت تصور الأرض ملائ بالشياطين حكومة للآلهة على شيء من النظام كانت في واقع أمرها مرآة ينعكس عليها ما طرأ على العالم اليوناني من استقرار سياسي أخذ في النماء .

وكان على رأس هذا النظام الإلهي الحديد رب الأرباب زيوس العظيم ؛ ولم يكن زيوس أول من وجد من الآلهة ، فقد سبقه كما رأينا من قبل أورانونس وكرونوس ، ولكنهما هما والجبارة **Titans** قد ثلت عروشهم كما ثلت عروش جيش الشيطان **Lucifer** (\*) . وقسم زيوس وإخوته العالم ووزعوه فيما بينهم بطريق

(\*) لقد أصبح النزاع الذي قام بين زيوس وأمرانه من جهة وبين الجبارة من جهة =

القرعة ؛ فكانت السماء من نصيب زيوس ، وكسب بوسيدن البحار ، وكسب هيديز باطن الأرض . وليس في أساطير اليونان ذكر لخلق العالم ؛ فقد وجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة ولم تخلق الآلهة الإنسان من حماً بل خلقتة من تزواج الذكور منها بالإناث ، أو بتزاوجها بأنثائها غير الخالدين ؛ والله في دين اليونان ليس إلا والدأ ، كما أن الآلهة الأولمبية ليست قادرة على كل شيء عارفة بكل شيء ، بل إن كل واحد منها يحدد سلطان الآخر ويعارضه أحياناً ، وكلها بما فيها زيوس نفسه يمكن أن يخدع ؛ غير أنها على بكرة أبيها تقرر له بالسيادة عليها ، وتحشد في بلاطه كما يحتشد الأتباع في ساحة أمير إقطاعي ؛ وهو وإن استشارها في بعض الشئون ، وعمل برأيها في بعضها وإن خالفت رأيه (٢٣) ، كثيراً ما يزجرها ويلزمها أن تعرف قدر نفسها (٢٤) . وهو يبدأ بأن يكون إلهاً للسماء والجبال ، ومنزل المطر الذي لا غنى للناس عنه (٢٥) ، وهو في بعض صوره الأولى إله حرب كيهوه ، يجادل نفسه هل ينهى حصار طروادة أو « يجعل الحرب أكثر مما كانت وحشية وإراقة للدماء » يأخذ بالرأى الثاني (٢٦) . ثم يصبح بالتدريج حاكم الآلهة والبشر ، المهادئ القوى الجالس فوق أولمپس ، الملتحي الوقور ، رأس النظام الأخلاقي ومصدره في العالم كله ، يعاقب غير البررة من الأبناء ، ويحمي أملاك الأسرة ، ويوثق الإيمان ، يعاقب الخائنين ، ويحفظ الحدود ، والمسكن ، والمتضرعين ، والأضياف ، وهو أخيراً المصدر الأعلى للأحكام الذي نحت فدياس تمثاله لأولمبيا .

= أخرى في نظر اليونان رمزاً لتغلب الحضارة والمثل على الممجية والقوة الوحشية وقد استمد الفن منه كثيراً من موضوعاته .

(٥) أكبر الفن أن لفظ زيوس ذو صلة بكلمة *dies* اللاتينية التي اشتقت منها كلمة *day* الإنجليزية ، وقد تكون مأخوذة من أصل هند - وري هو *id* ومعناه يلتج . وچوهر عند الرومان هو ريو - پاتر *Zeu-pater* أي زيوس الأب ، ومنه اشتقت كلمة *dios* . وفي هذه الأيام سميت الأماكن وقمم الجبال التي كان يأوي إليها زيوس أو كانت حراماً مقدساً له باسم القديس إلياس من قديسي الكنيسة اليونانية ومنزل المطر البلاد ، أو أصبحت حراماً مقدساً لهذا القديس (٢٥) .

وعيه الوحيد هو ما يدفعه إليه نزق الشباب من استسلام سريع للحب ، وإذ لم يكن هو خالق النساء فإنه يعجب بهن ويراهن كائنات عجيبة تجمد الآلهة نفسها فيهن موهبة الجمال والحنان ، وهما صفتان تسموان عن كل تقدير ؛ ويجد نفسه عاجزاً عن مقاومة إغرائهن . ويذكر هزيود ثباتاً طويلاً بمحوبات الإله ، وبما أنجب منه من أبناء عظام (٢٧) . وكانت حبيته الأولى ديوني ، Dione ولكنه يغادرها في أپروس حين يهاجر إلى أولمپس في تساليا ، وفيها تكون زوجته الأولى هي متيس Metis إلهة الكيل ، والعقل ، والحكمة ؛ ويرامى إليه أن أبناءها سينزلونه عن عرشه ، فيبتلعها ، ويأخذ منها صفاتها ، ويصبح هو نفسه إله الحكمة ؛ وتلد متيس أثينا في جوفه ، وإذن فلا بد من قطع رأسه حتى تخرج إلى العالم ، ويحس هو بالوحدة والحاجة إلى المونس الجميل فيتزوج ثيمس Themis وتلد له الساعات الاثنتي عشرة ؛ ثم يتزوج يورينوم وتلد له إلهات اللطف الثلاث ؛ ثم يتزوج نموسيني Mnemosyne وتلد له ربات الشعر التسع ؛ ثم ليتو وينجب منها ولديه أبلو وأرتميس ؛ ثم أخته ديمتر وينجب منها پرسفوني : فإذا ما صرف شبابه في الملاذ على هذا النحو تزوج آخر الأمر أخته هيرا وأجلسها ملكة على أولمپس فتلد له هبي Hebe ، وأريس Ares ، وهفستوف Hephaestus ، وأيليثيا Eileithyia ، ولكن الشقاق يقع بينه وبينها ، لأنها لا تقبل عنه سناً ؛ وهي تلقي أكثر مما يلقي من التكريم في كثير من الدول اليونانية ، وهي رعاية الزواج والأمومة ، وحامية الروابط الزوجية ؛ وهي ظريفة أنيقة ، وقورة ، فاضلة ، لا يعجبها عبته ومداعباته ؛ وهي إلى هذا كله سليطة إلى أبعد حد . ويهم بأن يضربها (٢٨) ، ولكنه يرى أن أيسر من ضربها عنده أن يفرج عن كربه بزيجات جديدة . وكانت نيوبي أولى زوجاته من الأدمين ، وكانت آخرهن ألكينا وهي من نسل نيوبي في الجيل السادس

عشر(\*) ، وهو يسير على سنة اليونان في عدم التفريق بين الذكور والإناث ، فيحب جنميد الوسيم ، ويختطفه لكي يجعله ساقبه فوق أولمبس ، وكان من الطبيعي أن يكون من بين أبناء هذا الأب الخصب بعض النجباء الممتازين . من ذلك أن أثينا حين ولدت كاملة الفؤ والسلاح من وأس زيوس ، أمدت أدب العالم بإحدى استعاراته التي ما زالت تتكرر حتى ملها الناس . وكانت أجدر الآلهات بأن تكون إلهة مدينة أثينة ، تفخر بأنها عنراء وتتخذ من هذا سبباً لمواسات فتياتها العذارى ، وتبعث في نفوس رجالها الحماسة الحربية ، وتمثل ليركليز الحكمة التي هي خليقة بها لأنها ابنة متيس وزيوس . ولما حاول الجبار پلاس Pallas أن يغازلها قتلته وأضاف اسمه إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من خطاياها . وقد خصتها مدينة أثينة بأجل هياكلها وأفخم أعيادها .

وكانت عبادة أبلو الرسم أوسع انتشاراً من عبادة أخته أثينا ، وكان أبلو إله الشمس المتلألئ ، راعى الموسيقى والشعر والفن ، منشىء المدن ، مشرع القوانين ، إله الشفاء ووالد أسكليبيوس ، إله الحرب الرامى بالنبال إلى أبعد مدى ، الذى خلف جيا وفوبي Phoebe (\*\*\*) . فى دلقي ، وكان أقدس من ينزل الوحي فى بلاد اليونان ، وكان إله المحاصيل النامية ، وبهذه الصفة كان يتلقى العشور فى أيام الحصاد ، وكان فى نظير هذا يبعث بدفته وضوئه الذهبين من ذيلوس ودلقي ليخصب التربة وبغيتها . وكان فى كل مكان يقترن بالنظام والاعتدال والجمال ، وبينما كانت عبادة غيره من الآلهة ومراسمها تتضمن كثيراً من عناصر الخوف والخرافات الغريبة ، كانت النعمة السائدة فى عبادة أبلو وفى أعياده العظيمة فى

---

(\*) من واجبتنا أن نضيف إلى هذا ، إنصافاً للموتى ، أن معظم هذه المفامرات كانت فى أغلب الظن من اختراع الشمرء أو القبائل التي كانت تحرس على أن تصل أنسابها بأعظم الآلهة كلها .

(\*\*) ومن فوبي اشتق اسم فيبوس أى « الملهم » .

دلفى وديلوس هي التعبير عن ابتهاج الشعب المستنير بإله الصحة والحكمة والعقل والغناء ، وكانت أخته أرتيميس ( ديانا ) . سعيدة مثله . وكانت أرتيميس إلهة الصيد العذراء ، المنهمكة في شئون الحيوانات ، وفي ملذات الغابات ، انهما كما لا يترك لها وقتاً لحب الرجال ، وكانت إلهة الطبيعة البرية ، والمراعى والغابات واتلال ، والغصن المقدس . وكما كان أبولو المثل الأعلى للشباب اليونانى ، كذلك كانت أرتيميس المثل الأعلى للفتيات اليونانيات - كانت قوية الجسم ، رياضية رشيقة عفيفة ، وهذا فقد كانت راعية النساء فى الولادة ، وكن يدعوها لتخفف عنهن آلام الوضع . وكانت تحتفظ فى إفسوس بطبيعتها الأسيوية ، فكانت إلهة الأمومة والإخصاب ؛ وهذه الطريقة اختلطت فكرتنا العذراء والأم فى عبادتها ، وقد وجدت الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس بعد الميلاد أن من الحكمة أن تضيف ما بقى من هذه الطقوس الدينية إلى مريم ، وأن تحول عيد الحصاد الذى كان يقام لأرتيميس فى منتصف أغسطس إلى عيد انتقال العذراء إلى السماء (٢٩) . وهذه الطريقة وأمثالها يحتفظ الحديد بالقديم ويتبدل كل شىء عدا الجوهر ذلك أن التاريخ كالحياة يجب أن يستمر أو يموت ؛ فقد تبدل الأخلاق والأنظمة ولكنها تبدل ببطء ؛ وإذا حال حائل قوى بينها وبين نمائها وتطورها نسيت الأمم نفسها وحن جنونها .

وكان من بين تلك الآلهة إله أشبه ما يكون بالآدميين ، هو الصانع الأولي الماهر هفستس الأعرج المعروف عند الرومان باسم فلكان Vulcan . ويبدو أن هذا الإله المهين المظلوم ، إله السماء الأول كان إلهاً سخيلاً خليقاً بالثناء ، ولكنه فى آخر الأمر يستدر عطفنا أكثر مما يستدره الآلهة الماكرة التى لا ضمير لها ، والتى تسمى معاملته ، ولعله كان فى أيامه الأولى ، قبل أن يصير قريب الشبه بالأناس ، روح النار والكبر . وهو فى قصص هومر الدينى ابن زيوس وهيرا ، ولكن أساطير غير أساطير هومر تؤكد لنا أن هيرا حسدت زيوس على مولده

لأثينا بلا معونة ، فولدت هي الأخرى هفتس من غير حاجة إلى ذكر . ولما رآته قبيح المنظر ضعيف الجسم ، ألقته به من فوق أولمبس ، ولكنه عرف طريق العودة إلى موطنه ، وشاد للآلهة القصور الكثيرة التي كانوا يسكنون فيها . وكان يكن لأمه كل شفقة وإجلال رغم ما لقيه على يديها من سوء المعاملة ، وقد دافع عنها دفاعاً مجيداً في نزاعها مع زيوس ، فما كان من إله أولمبس العظيم إلا أن أمسك بساقه وقذف به إلى الأرض . واستغرق هفتس في تروله يوماً كاملاً ، حتى استقر آخر الأمر على جزيرة لمنوس ، وجرح عقبه ، وبوكد العارفون أنه أصبح من ذلك الحين شديد العرج يتألم كلما مشى ( وإن كان هومر يقول إنه كان أعرج قبل هذه الحادثة ) . وعاد مرة أخرى إلى أولمبس ، وصنع في حانوته الكثير الضوضاء سناناً ضخماً وضع فيه عشرين منفاخاً كبيراً ، وعمل دروع أخيل ، وتماثيل تتحرك من نفسها ، وعجائب أخرى كثيرة . وكان اليونان يعبدونه بوصفه إله جميع الصناعات المعدنية ، ثم أصبح عندهم إله جميع الصناعات البدوية ، وكانوا يعتقدون أن البراكين هي مداخن حوائثته التي تحت الأرض . وكان من سوء حظّه أن تزوج أفرديتي ووجد أن من أصعب الأمور أن تجتمع الفضيلة والجمال في شخص واحد . ولما عرف هفتس بما كان بينها وبين أريس ، صنع للمحبين شركاً وقع عليهما في أثناء اجتماعهما . وهكذا انتقم الإله الأعرج لعرجه بأن عرض على زملائه الآلهة إلهي الحب والحرب مكبلين في الأغلال ، وكان منظراً أثار ضحك الآلهة . وقال هرمس لأپلو - كما يحدثنا هومر :

« أي هرمس يابن زيوس ... هل يرضيك حقيقة أن تنام على فراش واحد بجانب الإلهة أفرديتي ، ولو كنت مكبلاً بالأغلال الثقال ؟ » فأجاب الرسول (\*) يقول : أيها الإله أپلو ؛ ليت هذا يكون ، وليتني أكبل بثلاثة أمثال هذه الأغلال التي لا أجد منها خلاصاً ، وأن تشاهدوني أنتم أيها الآلهة - نعم

والإلهات كلها أيضاً - إن استطعت أن أنام إلى جوار أفرديتى الذهبية<sup>(٣٠)</sup> .  
حسبنا هذا عن هفتس ، أما إزيس ( المريخ ) فلم يكن يمتاز بالذكاء  
أو الدهاء ؛ وكانت صناعته الحرب ، وحتى سحر أفرديتى ومفاتها لم تكن  
تثير فيه النشوة التى يثيرها التقبيل الذى كان شهوة وغريزة فيه . ويسميه  
هومر « نعمة صبت على البشر » ، ويصف لنا وهو مغتبط كيف ألقته أثينا  
على الأرض بضربة حجر ، ويقول إنه « وهو نائم قد غطى سبعة أفدة<sup>(٣١)</sup> » .  
هذا أريس أما هرمس ( ميركرى أو عطارد ) فأكثر منه طرافة . فقد كان  
فى بادئ أمره حجراً ، وعبادته مستمدة من عبادة الحجارة المقدسة ؛ ولا  
تزال المراحل التى مر بها ظاهرة واضحة ، فقد صار فى المرحلة الثانية الحجر  
الطويل الذى يوضع فوق المقابر ، أو الروح ( الديمون ) الكامنة فى هذا  
الحجر ؛ ثم صار بعدئذ حجر الحدود أو إلهها ، يحدد الحقول ويحرسها ،  
وإذ كان عمله فيها فضلاً عن تجديدها وحراستها هو توفير الخصب لها ،  
فقد صار قضيب الرجل رمزاً من رموزه . ثم أصبح فيما بعد العمود - ذا الرأس  
المنحوت ، والجسم غير المنحوت ، وعضو التذكير البارز - الذى كان  
يوضع أمام بيت كل أسرة ذات شأن فى أثينة<sup>(٣٢)</sup> . وسرى كيف كان يتر  
هذه الأعمدة عشية الحملة على سرقوسة السبب المباشر لهلاك القيادس وخراب  
أثينة . وهو إلى هذا كله إله المسافرين ، وحامى المتادين ، وعصيم من أحب  
شعائره إليه . وقد أصبح بوصفه إله المسافرين إله الحظ ، والتجارة ، والدهاء ،  
والكسب ، ومن ثم أصبح مخترع المكاييل والموازين ، وحارسها ، كما أصبح  
الملاك الراعى للحائنين والمختلسين واللصوص<sup>(٣٣)</sup> . وهو نفسه بشير ونذير يحمل  
الرسائل والأوامر بين الآلهة الأولمبية أو بيننا وبين البشر ، وهو يسير على خفين  
مجمعين بسرعة الريح العاصفة ، وتكسبه هرولته ليناً ورشاقة ،  
وتبهته لأن يتخذ الصورة التى يظهر بها فى تمثال بركستليز . وهو بوصفه شاباً  
سريع العدو قوى الجسم ، راعى الرياضيين ونصيرهم ، ونجد صورته التى تظهر

فيها رجولته كاملة مكانا لها في كل مكان للتدريب العضلي<sup>(٣٤)</sup> . وإذ كان هو المنذر والمبشر فقد كان إله الفصاحة ، وإذ كان الشارح السماوى فقد أصبح رأس عدد كبير من الشراح والمفسرين . وتصف لإحدى الترانيم « الهومرية » كيف مد أوتاراً على صدفة سلحفاة و اخترع بذلك قيثارة . ثم يحين الوقت الذى يسترضى فيه أفرديتى فيستولدها ، كما يجبرنا القصاصون ، نخنى ( هرمفرديتى Hermaphrodite ) ناعم الجسم يرث منهما مفاتيها ويشتق اسمه من اسميهما .

ومن الخصائص التى امتازت بها بلاد اليونان أن كان لها فضلا عن إلهة العفة والبكورة والأمومة ، إلهة للجمال والحب ، وما من شك في أن أفرديتى كانت في مواطنها الأولى بالشرق الأدنى ، وفي قبرص موطنها نصف الشرق ، كانت في هذه المواطن أول الأمر إلهة أمّاً ؛ ولقد ظلت طوال عهدها ذات صلة وثيقة بالتوالد والإخصاب في الممالك النباتية والحيوانية والبشرية بأجمعها ، فلما أن تقدمت الحضارة وازداد الأمن ولم تعد للناس حاجة بكثرة المواليد ، تركت حاسة الجمال حرة طليقة نجد في النساء قوما غير قيم التناسل الكثير ، ومن ثم لا تقتصر أفرديتى على أن تكون المثل الأعلى للجمال بل تصبح إلهة اللذائذ الجنسية بجميع أنواعها . وعندها اليونان في صور مختلفة : فهى في صورة أفرديتى أورانيا - السماوية - ربة الحب العذرى أو المقدس ، وفي صورة أفرديتى بندموس Pandemos - الشعبية - إلهة الحب اللدنس بكافة أنواعه ، وفي صورة أفرديتى كليبيجوس Kallipygos فينوس ذات الردين الجميلين . وقد أقامت المومسات في أثينة وكورنثة هياكل لها ، واتخذنها راعية لمن ونصيرة . وكانت بعض المدن في بلاد اليونان تحتفل بالأفرديسيا عيدها العظيم في أول شهر إبريل ، وفيه كانت تطلق حرية الاختلاط الجنسي لكل من شاء<sup>(٣٧)</sup> . وكانت هى إلهة الحب لأهل الجنوب ذوى الشهوات الجنسية والعواطف الثائرة ، وهى المنافسة القديمة لأرتميس إلهة الحب عند أهل الشمال الباردین الصيادين ، وقد جعلتها الأساطير

- التي لا تكاد تقل سخرتها عن سخرية التاربخ - زوجة هفستوس المقعد ، ولكنها تروح عن نفسها بالانصال بأريس ، وهرمس ، وپوسيدن ، وديونيسس وبكثيرين من الآدميين مثل أنكيسيز وأدنيس<sup>(٥)</sup> . وقد أهدى إليها باريس في مباراة بينها وبين هيرا التفاحة الذهبية جائزة الجمال ، ولكن بعلمها لم تكن جميلة بحق إلا بعد أن أعاد پركستليز تصويرها ، وخلع عليها ذلك الجمال الذي جعل بلاد اليونان تغفر لها جميع خطاياها .

ومن واجبتنا أن نضيف إلى كبار الآلهة الأولمبية من أبناء زيوس الشرعيين منهم وغير الشرعيين أخته هيرا إلهة البيت ، وأخاه پوسيدن المشاكس . وكان هذا الإله يماثل عند اليونان نبتون عند الرومان يرى وهو آمن على نفسه في مملكته المائتة أنه ند زيوس وقرينه ؛ وحتى الأم التي تعيش في داخل القارة بعيدة عن البحر كانت تعبده لأنه لم يكن الحاكم المسيطر على البحر فحسب ، بل كان المسيطر أيضاً على الأنهار والعيون ، وكان هو الذي يهدى المجارى العجيبة التي تسير تحت الأرض إلى طرقها ، والذي يحدث :زلازل بأمواج المد<sup>(٦)</sup> . وكان الملاحون اليونان يقيمون له الصلوات . يشيدون الهياكل على ألسنة الأرض الخطرة الممتدة في البحار ليتها بها غضبه .

وبشيدون هناك آلهة أقل من هذه شأنها حتى على جبل أولمپس ، لأنه تجسيد المعاني المجردة لم يكن يقف عند حد . فمن هذه هستيا ( وهي فستا عند الرومان ) إلهة

---

(٥) ليست أسطورة أدنيس إلا صورة أخرى من موضوع الإنبات الكثير الصور ، ونقصد بالإنبات موت التربة وبعضها في كل عام . وقد شغفت بهذا الشاب الوسم كل من أفردتي وپرسفوني إلهتي الحب والموت . وحسد أريس أرتيمس على حظوته لدى أفردتي ففتكر في صورة خنزير برى وقتله . وولدت من دم أدنيس شقائق النعمان ، ومن أحزان أفردتي أنهار من الشعر ؛ وأقنع زيوس الإلهتين أن تقبلا بينهما وقت أدنيس واللغات ، فبق نصف العام مع پرسفوني في هاديز ( الجحيم ) ، ثم يعيد إليه في النصف الثاني حياته الأرضية ووجهه اللذيذ . وكان الفينيقيون والقبرصيون والأثينيون يحتفلون بموت أدنيس فيتمون له عيد الأودونيا ، فكانت النساء يحملن صورة الرب ( لأن هذا هو معنى لفظ أدنيس ) . ويندبن موته بأهل أصواتهن ثم يحتفلن احتفال النصر بيت<sup>(٦)</sup> .

الموقد وناره المقدسة ، ومنها إيريس Iris ( قوس قزح ) ورسول زيوس في بعض الأحيان ، ومنها هيبى Hebe إلهة الشباب ، وإليثيا التي تعين النساء على الوضع ، ومنها ديكي Dike أو العدالة ، ومنها تيكي Tyche الفرصة ؛ وإيروس Eros الحب الذي جعله هزبود خالق العالم والذي سمته سافو « مذيبة الأضلاع ، الحلو - المر ، الوحش الضارى العنيد » (١٠) . وكان هيمينوس Hymeneus ، نشيد الزواج ؛ وهينوس Hypnos النوم ؛ وأنيروس Oneiros الأحلام ؛ وچيراس Geras الشيخوخة ؛ وليثى Lethe النسيان ؛ وثاناتوس Thanatos الموت وغيرها وغيرها مما يخطفه الحصر . وكانت لهم تسع إلهات للفن تلهم الفنانين والشعراء : كليو Clio للتاريخ ، ويوتربى Euterpe للشعر الغنائى الذى يوقع على المزمار ؛ وثاليا Thalia للمسرحيات الهزلية وشعر الرعاة ؛ وملپوميني Melpomene للمآسى ؛ وترپنسكورى Terpsichore للرقص المصحوب بالغناء وللغناء نفسه ، وإراتو Erato للشعر الغزلى والهزلى ؛ وبولنيا Polymnia للترانيم ؛ وأورانيا Urania للفلك ، وكليوبي Colliope للملاحم الشعرية . وكانت لهم ثلاث إلهات للرحمة لها اثنا عشر تابعاً هى الساعات . وكان من هذه الآلهة الصغار تمسيس الذى يوزع الخبز والشر على الناس ، ويرسل الدمار إلى كل من يرتكب جريمة الهبريس hybris - الزهو في أيام الرخاء . وكان منها الإرينيات Erinnyes إلهات الغضب الرهيبة التى لا تترك ظلماً إلا انتقمت له . وكان اليونان يطلقون عليها اسم اليومنيدات Eumenides أى مريدات الخير تجملاً منهم لها ودرءاً لشرها . وآخر ما نذكر من آلهتهم المويراى Moirai أى ربات الأقدار والحظوظ اللاتى كن ينظمن شئون الحياة تنظيماً لا مرد لحكمهن فيه ، ويتصرفن على حد قول البعض في حظوظ الآلهة والآدميين على السواء . وعند هذا الحد من التفكير يقف الدين اليونانى ثم ينتقل بعده إلى العلم الطبيعى وإلى القانون .

ولقد أبقينا إلى آخر هذا السجل أكو' الآلهة اليونانية إثارة للتعجب ،

وأجها إلى الشعب ، وهو إله يصعب علينا كل الصعوبة أن نحدد مكانه بين هاته الآلهة . ذلك هو ديونيسس الذي لم يقبل بين آلهة أولمبس إلا في أخريات أيامه . ذلك أنه كان في أول الأمر من آلهة تراقية ، قبل أن تنهبه تلك البلاد إلى اليونان . وكان في موطنه الأصلي إله الشراب المعصور من الشعير ، وكان اسمه فيها سبزيوس Sabazius ، فلما جاء بلاد اليونان أصبح إله الخمر ، ومغذى الكروم وحارسها . وكان في بادئ الأمر إلهاً للخصب ، ثم أصبح إله السكر ، وانتهى أمره بأن صار ابن الله الذي مات لينجي البشر . واختلطت عدة صور وأفاصيص بعضها ببعض لتتكون منها أسطوره ، فكان اليونان يتخيلونه في صورة زجربوس Zagreus أى « الطفل المقرن » ، الذى ولد لزيبوس من أخته پرسفونى . وكان أحب أبناء زيوس إليه ، ويجلس إلى جواره على عرشه فى السماء . ولما حسدته هيرا على منزلته وأغرته الجبابرة بقتله ، بدله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار . ولكن الجبابرة قبضوا عليه وهو فى هذه الصورة الثانية ، وقطعوا جسمه إرباً ، سلقوها فى قدر . وفعلت به أثينا فعل ترلوني Trelownay ، فأنقذت قلبه وحملتة إلى زيوس ، وأعطاه زيوس إلى سميل Semele فحملت به وولدت الإله مرة أخرى وسمى بعد مولده ديونيسس(\*) .

وكان الحزن على موت ديونيسس والاحتفال والسرور ببعثه أساس طقوس دينية واسعة الانتشار بين اليونان . فقد كانت النساء اليونانيات يصعدن التلال

(٥) وقد فسّر ديودور الصقلي من زمن بعينه يرجع إلى عام ٥٠ ق. م إلهة تسمى دلي أنها أسطورة من أساطير الإنيات فقال إن زجربوس ، الكرم ، هو ابن ديمتر ، الأرض ، بعد أن لقمها زيوس ، المطر . ويقام ، أى يشذب ، الكرم كما يتغذى الإله ليحيى حياة جديدة ، ويفل عصار العنب ليكون نبيذاً . ويولد الكرم مولداً جديداً فى كل عام ، بعد أن يمتد غداه من المطر (٤١) وقد وجد هيرودوت بين أسطورتى ديونيسس وأوزيريس من أوجه الشبه الكثيرة ما جعله يجمع بين الإلهين فى مثاله الذى يعد من أول ما كتب من المقالات فى مقارنة الأديار (٤٥)

في فصل الربيع حين تزهو الكروم ليقابلن الإله حين يولد من جديد . وكن يقضين يومين كاملين يحسّين فيهما الخمر بلا حساب وكن يرين كما يرى السكّيون غير المتدينين في هذه الأيام أن قليلة العقل من لا تفقد عقلها من الشراب ، وكن يسرن في موكب عجاج تقودهن ميندات Maends أو نساء ذاهلات العقل مشغوفات بديونيسس ؛ وكن يرهفن. آذانهن لسماع قصته التي يعرفها حق المعرفة ، وما لقيه إلهن من عذاب وموت وبعث ؛ وكن في أثناء احتسائهن الخمر ورقصهن يهتجن احتياجا يتحللن فيه من جميع القيود . وكان محور هذا الاحتفال وأهم ما فيه أن يمك النساء بماعز أو ثور أو رجل في بعض الأحيان ( يرين أن الإله قد تقمصه ) ويمزقنه إربا وهو على قيد الحياة ، إحياء لذكرى تمزيق ديونيسس ؛ ثم يشربن دمه ، ويأكلن لحمه يتخذنه عشاء ربانيا مقدسا ، معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة . إلى أجسامهن ويستحوذ على أرواحهن . وكن في هذه الحماة القدسية(\*) يومن بأنهن سيصبحن هن والإله شيئا واحدا ، وأنهن سيظفرن بالامتزاج معه امتزاجا صوفيا . ولهذا كن يتسمين باسمه فيطلقن على أنفسهن اسم البكوى Bacchoi ويعتقدن أنهن لن يمتن بعدئذ أبدا ، أو كن يسمين الحالة التي هن فيها الإكستسيز ecstases ( النشوة ) أي خروجهن من أرواحهن ليلاقين ديونيسس ويتحدن معه . وبهذا كن يشعرن بأنهن قد تحررن من أجسامهن ؛ وحصلن على قوة اختراق حجب الغيب فأصبحن قادرات على التنبؤ ، وصرن في واقع الأمر إلهات . تلك هي الطقوس الانفعالية التي انتقلت من تراقية إلى بلاد اليونان كأنها وباء ديني شبيه بأوبئة العصور الوسطى ، ينتزع اقلها في أثراقليم من آلهة أولمبس الباردة الواضحة معبودات الدولة الرسمية ليُحِلّ علما دناء طقوسا تشيع شهوة الاهتياج والتحرر من القيود ، والحنين إلى التمسس

---

(\*) ولفظ الحماة الإنجليزي euthusiasm مشتق من إنيثوس Enthos ، إله في الداعل ، وكان هذا اللفظ يعني في أول الأمر تملك إله جسم إنسان .

والاستحواذ والتصوف والغموض . وقد حاولت دلتي أن تبعد عنها هذه الطقوس الدينية ، وحاول ذلك حكام أثينة أيضا ، ولكن دلتي عجزت عن إبعادها عجز حكام أثينة . وكل ما كان في مقدورها ومقدورهم هو إدخال ديونيسس في زمرة أرباب أولمبس ، وصبغه بالصبغة اليونانية والإنسانية ، والاحتفال بعيده احتفالا رسمياً ، وتبديل روح عباده من نشوة الخمر الجنونية بين التلال إلى المواكب الفخمة والأغاني القوية والمسرحية ذات الروعة والجلال التي تمثل في عيد ديونيزيا العظيم . وقد ضموا ديونيسس وقتاً ما إلى أبلو ، ولكن أبلو استسلم آخر الأمر لوارث ديونيسس وغالبه ألا وهو المسيح .



(شمال ۱۷) ارفیوس ، ویورپدیز ، ورمس  
(متحف نابلی)

## الفصل الثالث

### أسرار خافية

لقد كان في دين اليونان ثلاثة عناصر وثلاث مراحل رئيسية : عنصر أرضي ومرحلة أرضية ، وعنصر أولمبي ومرحلة أولمبية ، وعنصر صوفي ومرحلة صوفية . وأكبر الظن أن أول العناصر وأولى المراحل من أصل بلاسجى - ميسينى ، وأن ثانيهما وثانيتهما من أصل أخى - دورى ، وثالثهما وثالثتهما من أصل مصرى - أسيوى . وكانوا يعبدون في المرحلة الأولى آلهة تحت الأرض وفي الثانية آلهة سماوية وفي الثالثة آلهة بعثت بعد الموت . وكانت العبادة الأولى أكثر انتشاراً بين الفقراء ، والثانية بين الأغنياء ، والثالثة بين الطبقة المتوسطة - الدنيا . وسادت العبادة الأولى قبل العصر الهومرى والثانية في أثنائه والثالثة بعده . ولم يكدهم يحل عصر الاستنارة في أيام هرقليز حتى كان التخفى أقوى العناصر في الدين اليونانى . والتخفى عند اليونان احتفال سرى يكشف فيه عن رموز مقدسة ، وتقام فيه طقوس رمزية ، لا يتعبد بها إلا المطلعون على أسرارها . وكانت هذه الطقوس في العادة تمثل عذاب إله من الآلهة وموته وبعثه ، أو نجي ذكرى هذا العذاب والبعث والموت بطريقة شبه مسرحية ، وتشير إلى موضوعات زراعية قديمة وإلى ضروب من السحر ، وتعيد أولئك المطلعين حياة أبدية خالدة .

وكانت أماكن كثيرة في بلاد اليونان تمارس هذه الطقوس الخفية ، ولكن ما من مكان فيها كان يضارع إلويسيس من هذه الناحية . وكان ما فيها من الطقوس موروثاً من عهد ما قبل الآخين ، ويبدو أنها كانت في الأصل احتفالاً في الخريف بالحرث والزرع<sup>(٤٣)</sup> . فقد كان ثمة أسطورة تقول إن ديمتر أرادت أن تكافئ أهل أتكا لعطفهم عليها في تجوالها فأقامت في إلويسيس أعظم هيكل من

هاكلها ، ثم هدم هذا الهيكل وأعيد بناؤه مراراً كثيرة خلال تاريخ اليونان . ودخل عيد دمتر في أيام أئينة صولون وبيسستراتس وبركليز ، وازداد فيها عظمة وفخامة ، وكان طلاب الأسرار الصغرى التي تقام في فصل الربيع بالقرب من أئينة يتطهرون أولاً بأن يغمرُوا أنفسهم في ماء إليس Illisus ، فقد كان الطلاب وغيرهم من الناس يحجون سيراً على الأقدام في وقار وجزل مدى أربعة عشر ميلاً في الطريق المقدس إلى إلويسيس ، يحملون فوق رؤوسهم صورة الإله الأرضي ياكوس Iacchus حتى إذا ما وصل الموكب إلى إلويسيس في ضوء المشاكل ووضع صورة الإله في الهيكل وسط مراسم التعظيم والإجلال ، قضوا ما بقي من اليوم في الرقص والغناء المقدسين .

تلك هي الأسرار الصغرى ، أما الأسرار الكبرى فكانت تلوم أربعة أيام أخرى ، وتبدأ بإدخال من تطهروا في الأسرار الصغرى بالاستحمام والصوم ، أما الذين مارسوا هذه الطقوس في مثل ذلك الموعد من العام الماضي فكانوا يؤخذون إلى جهو الاندماج في الجماعة السرية ، حيث يكون الاحتفال السرى . وهناك يفطر المبتدئون الصائمون بأن يتناولوا عشاء ربانيا مقدساً إحياء لذكرى دمتر ، ويشربوا مزيجاً مقدساً من دقيق الحنطة والماء ، ويأكلوا كمكاً مقدساً . ولسنا نعلم أى طقوس خفية كانت تحدث في ذلك المكان ، فذلك شر ظل خافياً خلال التاريخ القديم كله ، وكان محرماً على أى إنسان أن يبوح به وإلا تعرض للقتل . ولقد نجح إسكلس التي نفسه من حكم الإعدام بأعجوبة لأنه كتب بضعة أسطر ظن أنها قد تكشف السر . وكل ما نستطيع أن نقوله أن الاحتفال كان عبارة عن مسرحية رمزية لها أثر في إحياء مسرحية ديونيسس ، وأكبر الظن أن موضوعها كان اختطاف بلوتو لپرسفوني ، وتجوال دمتر الحزينة وعودة الفتاة العذراء إلى الأرض ، والكشف لأنكا عن أسرار الزراعة . وكانت خلاصة الاحتفال هي زواج خفي بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل دمتر ،

وكان هذا الزواج الرمزي يثمره بسرعة سحرية عجيبة ، فقد كان يعقبه بعد قليل - على ما ينقله لنا المؤرخون - إعلان صريح بأن « سيدتنا قد وضعت غلاماً مقدساً » ؛ ثم تعرض على الناس سنبله من الحب ترمز إلى الثمرة التي تمخضت عنها دمتر - نتاج الحمول ، ثم يؤخذ العابدون في ضوء المشاعل الشاحب إلى كهوف مظلمة تحت الأرض تمثل الجحيم ، يرفعون بعدها إلى حجرة عليا تتلأأ فيها الأنوار وتمثل ، على ما يظهر ، مسكن الصالحين ؛ وفيها تعرض عليهم وسط مظاهر التعظيم والتكريم الآثار أو الصور والتماثيل المقدسة التي ظلت إلى تلك الساعة مخفية عنهم ، ويؤكد العارفون أن هؤلاء المبتدئين كانوا وهم في نشوة هذا الإلهام المقدس يحسون بوحدتهم هم والإله ووحدة الإله والروح ، وأنهم قد انتشلوا من أوهام الفردية ، وأدركو طمأنينة الاندماج في الألوهية<sup>(٤٤)</sup> .

وفي عصر بيسسترانس دخلت أسرار ديونيسس في الطقوس الإلوسينية عن طريق عدوى دينية إذا صح هذا التعبير ، وذلك أن الإله ياكوس قد وحد هو وديونيسس ، وقيل إنه هو ابن پرسفوني ، وطغت خرافة ديونيسس زجربوس على أسطورة دمتر<sup>(٤٥)</sup> . ولكن الفكرة الرئيسية في هذه الطقوس نفسها ، وجوهر هذه الفكرة هو أن الموتى يمكن أن تتجدد حياتهم كما أن البذرة تولد مرة ثانية ، ولم يكن يقصد بحياتهم هذه حياة الأشباح النكدة في الجحيم ، بل يقصد بها حياة ملؤها السعادة والطمأنينة . ولما زال كل ما عدا هذه الفكرة من الدين اليوناني ، ظل هذا الأمل يعمر القلوب وامتزج في الإسكندرية بعقيدة الخلود المصرية التي هي أصل العقيدة اليونانية ، فكان هو السلاح الذي غزت به المسيحية العالم الغربي .

وجاءت إلى بلاد اليونان في القرن السابع طقوس دينية صوفية أخرى من مصر وتراقية ، وتاليا ، وكانت هذه الطقوس أجل خطراً في تاريخ اليونان من طقوس إلوسيس الخفية نفسها . ونجد في بداية هذه الطقوس في عصر ركاب

السفينة أرجوس شخصاً غامضاً ولكنه مع ذلك جذاب فتان ، ذلك هو أرفيوس التراقي الذي يصفه ديودور بأنه لم يكن يدانيه أحد ممن نعرف أسماءهم من الرجال في الثقافة والموسيقى والشعر<sup>(٤٦)</sup> ، ونرجح كثيراً أن أرفيوس هذا كان شخصاً حقيقياً ، وإن كان كل ما نعرفه عنه يمت بسبب إلى الأساطير . فهم يصورونه لنا في صورة الرجل الظريف ، الشفيق ، المفكر ، العطوف ، وهو تارة موسيقي ، وتارة كاهن زاهد من كهنة ديونيسس . وكان بارعا في العزف على القيثارة وفي الغناء عليها براعة افتتن بها سامعوه حتى كادوا أن يتخذوه إلها يعبدونه .

وكانت الوحوش إذا سمعت صوته خرجت عن طبيعتها واستأنست ، بل إن الأشجار والصخور كانت تغادر مواضعها لتستمع إلى نغمت قيثارته . وتزوج أرفيوس من يريديس الحسناء ، وكاد يجن حين قضت نحبها . فما كان منه إلا أن قفز إلى الجحيم وسحر برسفوني بقيثارته ، وسمح له أن يعيد يريديس إلى الحياة على شريطة ألا ينظر إليها حتى يصل إلى سطح الأرض . لكنه لم يطق صبراً على هذا وخشى ألا تكون من ورائه ، فنظر إلى الوراء عند آخر حاجز بينه وبين سطح الأرض ، فرآها تختطف مرة أخرى ويقذف بها إلى العالم السفلي . وحقدت عليه نساء تراقية لأنه أبي أن يسلي نفسه معهن فزقنه إربا في نشوة من نشواتهن الديونيسية . وكفر زيوس عن ذنبن بأن جعل قيثارة أرفيوس كوكبة من نجوم السماء<sup>(٤٧)</sup> . ودفن رأسه وهو لا يزال يغنى في لسبوس في شق صار فيما بعد مهبط وحى . ويقولون إن البلابل في هذا المكان كانت أرق وأحلى صوتاً منها في أى مكان آخر<sup>(٤٨)</sup> .

وقيل في العصور المتأخرة إنه خلف وراءه كثيراً من الأغاني الدينية ؛ وليس بعيد أن يكون هذا صحيحاً ، وتقول الرواية اليونانية المتواترة إن عالماً يدعى أونومكريتوس Onomacritus نشر هذه الأغاني في عام ٥٢٠ ، كما نشرت (٥) هي المعروفة في الفلك بكوكبة النسر الواقع . ( المترجم ) .

القصاصات الهومرية قبل ذلك بجيل من الزمان ؛ وفي القرن السادس أو قبله كانت هذه الأغاني قد أصبحت ذات طابع مقدس ، وقيل إنها قد أوحيت إلى صاحبها كما أوضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسس ، ولكنها تعلق عليها كثيراً فيما تنطوى عليه من عقائد دينية وفي طقوسها وأثرها الخلقى . فأما العقائد الدينية فقد كانت في جوهرها تؤكد لعذاب ديونيسس زجر يوس الابن المقدس وموته وبعثه ، كما كانت تؤكد أيضاً أن الناس جميعاً سوف يبعثون في حياة مستقبلية يثابون فيها على أعمالهم أو يعاقبون عليها . وإذا كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسس هم الذين تناسل منهم الآدميون ، فقد كانت البشرية كلها ملوثة بشيء من الخطيئة الأولى ، وكان عقابها على هذه الخطيئة أن الروح تسجن في الجسم كأنها في سجن أو قبر ، ولكن في وسع بني الإنسان أن يعزوا أنفسهم بأن يعرفوا أن الجبابرة قد أكلوا ديونيسس ، وأن كل إنسان ينطوى لهذا السبب في روحه على جزء من الألوهية الخالدة ، وكان عباد أرفيوس يتناولون في عشاء رباني جماعي لحم ثور نيئاً ، يمثل في اعتقادهم ديونيسس ، لإحياء لذكرى قتل الإله وأكل لحمه وامتصاصاً للجوهر المقدس من جديد<sup>(٤٨)</sup> .

ويقول علم اللاهوت الأرفي إن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها آلهة العالم السفلى على أعمالها ، وكانت الترانيم والطقوس الأرفية ترشد المؤمنين إلى ما يجب أن يتبعوه في هذا الحساب النهائي الشامل ، شأنها في هذا شأن كتاب الطرقي عند قدماء المصريين . فإذا حكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً . فمن قول إن هذا العقاب أبدى<sup>(٤٩)</sup> وهو الذي أخذت منه فكرة النار فيما بعد ، وهناك فكرة أخرى تقول بالتناسخ أي أن الروح تولد مرة بعد مرة لتحمي حياة أسعد من حياتها الأولى أو أشقى منها حسب طهارتها الأولى أو عدم طهارتها ، ويتكرر هذا المولد مرة بعد مرة حتى تتطهر الروح من ذنوبها تظهيراً تاماً فيسمح لها بالدخول في جزائر المنعمين<sup>(٥٠)</sup> . وهناك قول

ثالث يبعث الأمل في قلوب الموتى وخلاصته أن العقاب الذي يلقاه الميت في الجحيم قد ينتهى إذا كفر الإنسان عن ذنبه قبل موته أو كفر عنه أصدقاؤه بعد موته ، وهذه الطريقة نشأت عقيدة التطهير وصكوك الغفران ؛ ويصف أفلاطون وهو مغضب غضباً لا يكاد يقل عن غضب لوثر Luther بيع هذه الصكوك في أثينة في القرن الرابع قبل الميلاد فيقول :

« يقرع المنتبثون المتسولون أبواب الأغنياء ويدخلون في روعهم أنهم قد وهبوا القدرة على أن يكفروا لهم خطاياهم أو خطايا آبائهم بضروب من التضحية والرُقَى . . . ثم يخرجون من حقائبهم مجموعة ضخمة من الكتب بخط موسيوس Musaeus أو أرفيوس . . . يمارسون منها طقوسهم ، ويقنعون الأفراد ومدناً بأكملها أن التوبة من الذنوب والتكفير عنها يتان بتقريب القرابين والقيام بضروب التسلية ( الاحتفالات ) التي يشغلون بها ساعات الفراغ والتي يتقدمون بها إلى الأحياء وإلى الموتى على السواء ، وهم يسمون العمل الأخير ( الاحتفالات ) طقوساً خفية ، ويدعون أنها تنجينا من عذاب النار ، فإذا أغفلناها فلا يعلم أحد ماذا يصيبنا من عذاب (٥١) » .

على أن الأرفية كان فيها بالرغم من هذا اتجاهات مثالية هي التي أدت إلى الفلسفة الأخلاقية والرهينة في المسيحية . ذلك أن ما كان يعزى إلى آلهة أولمپس من انحلال خلقى واستهتار قد حل محله قانون صارم للسلوك ؛ وتل عرش زيوس الجبار شيئاً فشيئاً وحلت محله شخصية أرفيوس الظرفية بنفس الطريقة التي تل بها عرش يهوه ليحل محله المسيح فيما بعد . ودخلت في التفكير اليونانى فكرة الخطيئة والضمير والنظرة الثنائية إلى الجسم والروح ، التي تقول إن الجسم خبيث وإن الروح مقدس ، وصار إخضاع الجسم أهم أغراض الدين كما صار شرطاً لخلاص الروح . ولم يكن لطائفة الإخوان الأرفيين نظام دينى أو حياة خاصة بمعزل عن حياة الناس ، وكل ما كان يميزهم من غيرهم ثيابهم البيضاء وامتناعهم عن أكل

اللحم ، وتشفهم إلى درجة لم تكن مما يتفق عادة مع الحياة اليونانية ، وملاك القول أنهم كانوا يمثلون في اليونان إصلاحاً كإصلاح المتطهرين من عدة وجوه .

وكان لهذه الطائفة أثر بعيد طويل ؛ ولعل الفيثاغورين قد أخذوا منها طعامهم ولباسهم ونظريتهم في تقمص الأرواح . ومما هو جدير بالذكر أن أقدم ما لدينا من الوثائق الأرفية قد وجدت في جنوبي إيطاليا (٥٢) . وكان أفلاطون يعتقد بنظريتها في تعارض الجسم والروح ، وبنزعتها التزمتية ، وبأملها في الخلود ، وفي وسعنا أن نرجع بعض ما في الرواقية من زهد ومن وحدة الله والكون إلى أصل أرفي ، وقد كان في حوزة رجال الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية مجموعة كبيرة من الكتابات الأرفية اتخذوها أساساً للاهوتهم وطقوسهم وتصوفهم . كذلك أثرت فكرة النار والمطهر والجنّة ، وتعارض الجسم والروح ، والابن المقدس الذي قتل ثم ولد من جديد ، والعشاء الرباني وهو أكل جسم الإله ودمه وقدميته ، أثرت هذه كلها من قرب أو من بعد في المسيحية التي كانت هي نفسها دينا ذا طقوس ومراسم خفية ، فيها الكفارة والأمل والوحدة التصوفية ونحرر الروح ، ولا تزال الأفكار والعبادات التي تشتمل عليها الديانة الأرفية منتشرة بيننا في هذه الأيام .

## الفصل الرابع

### العبادات

لم تكن الطقوس الدينية اليونانية أقل تنوعاً واختلافاً من الآلهة التي كانت تخضع لها وتعظمها : فقد كان للآلهة الأرضية طقوس حزينة يُسكّن بها غضبها ويُنقّى شرها ، وكان للآلهة الأولمبية طقوس سارة كلها ترحيب بها وثناء عليها . ولم تكن هذه أو تلك تحتاج إلى كهنة يقومون بها . فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن في الأسرة ، وكان الحاكم الأكبر يقوم مقامه في الدولة . بيد أن الحياة في بلاد اليونان لم تكن حياة دنيوية كما يصفها المؤرخون ، بل كان للدين فيها شأن كبير في كل مكان ، وكانت كل حكومة ترعى الطقوس الدينية الرسمية وترى أنها لا بد منها للنظام الاجتماعي والاستقرار السياسي . على أنه بينما كان الكهنة في مصر وبلاد الشرق الأدنى يسيطرون على الدولة ، كانت الدولة في بلاد اليونان هي التي تسيطر على الكهنة ، وكان لها الزعامة في الشؤون الدينية ، ولم يكن الكهنة سوى موظفين صغار في الهياكل . كذلك كانت أملاك الكهنة ، عقاراً كانت أو نقوداً أو عبيداً ، يراجعها ويدير شؤونها موظفون من قبل الدولة<sup>(٥٣)</sup> . ولم تكن هناك معاهد لتخريج الكهنة بل كان في استطاعة أى إنسان أن يختار أو يعين كاهناً بلا جلبة أو مشقة إذا كان يعرف المراسم الدينية التي تتطلبها الآلهة ، وكان هذا المنصب في كثير من الأحيان يتولاه من يؤدي له أكبر الأثمان<sup>(٥٤)</sup> . ولم تكن هناك طبقة كهان خاصة ، أو هيئة لهم جامعة ، ولم يكن بين كهنة أحد المعابد أو إحدى الدول وزملائهم في معبد آخر أو دولة أخرى رابطة ما ، ولم يكن للدولة دين رسمي ، يستمسك به جميع أفرادها أو عقائد

ثابتة مقررة ؛ ولم يكن قوام الدين هو الإقرار بعقائد معينة ؛ بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسمية<sup>(٥٦)</sup> ، وكان في وسع أى إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألا يكفر بأهله المدينة أو يسبها ، وملاك القول أن الدين والدولة كانا شيئاً واحداً في بلاد اليونان .

ما مكان العبادة فيمكن أن يكون هو موقد الدار ، أو موقد البلدية القائم في قاعة المدينة العامة ، ويمكن أن يكون شقاً في الأرض يسكنه إله أرضى أو هيكلًا لإله أولمبي . وكان حرم الهيكل مكاناً مقدساً ، لا يعتدى عليه ، يجتمع فيه العابدون ، ويجد فيه اللاجئون مكاناً أميناً يحتضنون فيه ولو كانوا ممن ارتكبوا أشنع الجرائم . ولم يكن الهيكل مكاناً لاجتماع المصلين بل كان بيت الإله ، ينصب فيه تمثاله ، ويوقد أمامه ضوء لا ينطفئ أبداً . وكثيراً ما كان الناس يعتقدون أن الإله هو التمثال نفسه ، ولذلك كانوا يعنون بغسله ، وكسوته ، وإحاطته بكثير من ضروب الرعاية ، وكانوا أحياناً يؤثرونه إذا أهمل أمرهم ، وكانوا يقصون على من يستمع إليهم كيف تصدب التمثال عرقاً في بعض الأحيان أو كيف بكى أو أغمض عينيه<sup>(٥٧)</sup> . وكان يحفظ في سجلات الهيكل تاريخ أعياد الإله والحوادث الهامة في حياة المدينة أو الجماعة التي تعبد الإله صاحب الهيكل ، وكان هذا التاريخ أول التواريخ اليونانية والمنبع الذي استمدت منه أولى أشكال الكتابات التاريخية .

وكان الاحتفال يتألف من موكب ، وأناشيد، وقربان ؛ وأدعية ، يضاف إليها في بعض الأحيان وجبة مقدسة ؛ وقد يشمل الموكب سحراً ، ومقنعات ، وجواهر من الممثلين يعملون مجتمعين ، ومسرحية تمثيلية . وكانت أهم أجزاء الطقوس في معظم الأحيان تحددها العادات المألوفة ؛ وكانت كل حركة فيها ، وكل كلمة في الترانيم أو الصلوات ، مدونة في كتاب محفوظ عند الأسرة أو الدولة مقدس لديها ، لا يكاد يتغير فيه لفظ ، أو جزء من لفظ ، أو نغمة من النغمات

خشية ألا يجب الإله هذه البدعة أو ألا يفهمها . فقد تتغير اللهجات الحية ولكن لغة الطقوس تظل على حالها ، وقد لا يستطيع المتعبدون على مر الزمان أن يفهموا الألفاظ التي ينطقون بها<sup>(٥٨)</sup> ولكن النشوة التي يبعثها فيهم قدم العهد كانت تغنيهم عن الفهم . وكثيراً ما كان الاحتفال يبقى بعد أن ينمحي من ذاكرة المحتفلين كل شيء عنه ، ولا يبقى فيها حتى سبب هذا الاحتفال أو الباعث عليه . فإذا حدث هذا اخترعت أساطير جديدة تفسر قيامه ، فتتغير الأسطورة أو العقيدة وتبقى المراسم والطقوس ، وكانت الموسيقى عنصراً أساسياً لا غنى عنه في الاحتفال كله لأن الدين يشق على النفس من غير الموسيقى ، والموسيقى تنتج الدين كما ينتج الدين الموسيقى . ومن الهيكل وأناشيد الاحتفالات ؛ نشأ الشعر ، ونشأت القصائد التي ازدانت بها في الأيام الأخيرة عقائد أركلوكس القوية البديئة ، وعواطف سافو النائرة المستهتره ، وأشعار أنكريون الرقيقة الفاجرة .

وإذا ما وصل العابدون إلى المذبح - وكان موضعه عادة أمام الهيكل عملوا على اتقاء غضب الله أو كسب معونته بالضحيات والصلوات . وكان في وسعهم أفراداً أن يقربوا إليه كل ما له قيمة لا يكاد يستثنى من ذلك شيء قط : - تماثيل ، أو نقوشاً ، أو أثاثاً ، أو أسلحة ، أو آنية ، أو مناضد ، أو ثياباً ، أو فخاراً ؛ فإذا لم يستطع الإله أن يستخدم هذه القرابين استخدمها الكهنة . أما الجيوش فقد كان في وسعها أن تهب الإله جزءاً من غنائمها ، كما فعل جنود أكسنوفون العشرة الآلاف في أثناء ارتدادهم<sup>(٥٩)</sup> . وكان في مقدور الجماعات أن تهب تمار الحقول أو الكروم أو الأشجار ؛ أو حيواناً يشتهي الإله طعمه وهو الكثير الحدوث ؛ وعند مسيس الحاجة كان يصحى بالآدميين أنفسهم ، فقد ضحى أجمونون مثلاً بإفجينا كى تهب الريح ؛ وذبح أخيل اثني عشر من شباب طروادة على كومة حريق بتركولوس<sup>(٦٠)</sup> . وكان الضحايا الآدميون يقذف بهم من فوق صخور قرص ولوكاس استرضاء لأپلو ، وآخرون يهدون إلى ديونيسس في

طشيزوتندوس ؛ ويقال إن ثمستكليز ضحى ببعض أسرى الفرس يوم سلاميس<sup>(٦١)</sup> ؛ وكان الأسبارطيون يحتفلون بعيد أرتيمس أورثيا Artemis Orthia بجلد بعض الشبان عند مذبحها جلدأ كان يدوم في بعض الأحيان حتى يقضى على المجلودين<sup>(٦٢)</sup> . وظل زيوس في أركاديا يتقبل الضحايا البشرية حتى القرن الثاني بعد الميلاد<sup>(٦٣)</sup> . وكان إذا انتشر الوباء في مساليا جىء بمواطن فقير وأطعم من بيت المال ، وألبس الثياب الكهنوتية ، وزين بالأغصان المقدسة ، وألقى من فوق صخرة ومن حوله يدعون أن يكفر بعقابه هذا عن سينآت مواطنيه<sup>(٦٤)</sup> . وكان من عادة أهل أثينة إذا داهمهم القحط ، أو الطاعون ، أو غيرها من الأزمات أن يقدموا للإله ، إما حقيقة وإما تمثيلاً ، ضحية بشرية واحدة أو أكثر من واحدة تطهيراً للمدينة ؛ وكان يحدث مثل هذا في كل عام في عيد الثارجليا<sup>(\*)</sup> Phargelia<sup>(٦٥)</sup> . وقد خففت هذه التضحيات البشرية على مر الزمن بأن قصر الضحايا على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا فوق هذا يخذرون بالخمر ، ثم استعيض عنهم آخر الأمر بالحيوانات . ولما أن رأى بليبيداس Belopidas القائد البثوني في الليلة السابقة لمعركة لوكترا ( ٣٧١ ق . م ) حلاماً ظن على أثره أنه يطلب إليه تضحية بشرية على المذبح تكون ثمناً للنصر ، نصحه بعض مشيريه أن يلجئ الطلب ، وعارضه البعض الآخر وقالوا له : « إن هذا العمل الهمجى المجرى من كل معانى التقى والصلاح لا يمكن أن ترضى به الكائنات العليا أيا كانت ؛ وإن الجبايرة والمردة ليسوا هم حكام الأرض ، بل حاكمها هو أبو الآلهة والخلق عامة ، وإن من السخف أن يتصور الإنسان أرباباً وقوى عاليا يسرها التقتيل والتضحية بالآدميين<sup>(٦٨)</sup> » .

( ٥ ) وكان هؤلاء الضحايا يسمون فارمكوى Pharmakoi في أثينة وكان معنى هذا اللفظ في أول الأمر « السحرة » . ومعنى فارمكون Pharmakon رقية سحرية ، ثم أصبح معناها عقارا ساقية<sup>(٦٦)</sup> . والملاء مخطفون هل كان الفارمكوى يقتلون في الواقع أو لا يقتلون ، غير أنا لا نكاد نشك في أن اقتل في أول الأمر كان يحدث فضلا<sup>(٦٧)</sup> .

وإذن فقد كانت التضحية بالحيوان خطوة دبرى في تطور الحضارة . وكانت الحيوانات التي سبقت غيرها في هذا التطور في بلاد اليونان هي الثيران والضأن والخنزير ؛ فكانت الجيوش المتحاربة تقدم قبل المعركة من الضحايا ما يتناسب مع رغبتها في النصر ؛ وكان مكان انعقاد أية جمعية يطهر قبل انعقادها بالتضحية بخنزير . غير أن تقوى الناس لم تكن تقوى على طبيعتهم إذا حذبهم أمر خطير ، ولم يكن يصل من الضحية إلى الإله إلا عظامها وقليل من لحمها ملفوف بالدهن ، أما ما بقي منها فكان يترك للكهنة وللعابدين . وكان اليونان يبررون عملهم هذا بقولهم إن بروميشيوس Prometheus في عصر الجبابرة قد لف ما يصلح للأكل من جسم الضحية في جلدها ، ولف عظامها بالدهن وطلب إلى زيوس أن يختار ما يفضله منهما ، وإن زيوس اختار الدهن « بكلتا يديه » . نعم إن زيوس قد استشاط غضباً حين رأى أنه قد خدع ؛ ولكنه كان قد آتم الاختيار وكان عليه أن يرضى به ويصبر عليه إلى أبد الدهر<sup>(٦٩)</sup> . ولم تكن الضحية تقدم كلها لحمها وشحمها إلا للآلهة الأرضية ، وكان الحيوان كله في هذه الحال يحرق في محرقة عامة حتى يصير رمادا ؛ ذلك أن آلهة الأرض السفلى كان يخشى بأسها أكثر مما يخشى بأس الآلهة الأولمبية . ولم تكن وجبة عامة تعقب التضحية للإله الأرضي ، لأن هذا قد يفرى الإله بالخروج والاشتراك في الويعة . أما بعد التضحية للآلهة الأولمبية فقد كان العباد يأتون على الضحية كلها ، ولم يكونوا يفعلون هذا خوفاً من الإله وتكفيراً عن ذنوبهم ، بل كانوا يفعلونه لأن من دواعي سرورهم أن يشتركوا في الطعام مع الإله ، ويرجون أن تكون الصيغ السحرية التي ينطقون بها وقت الطعام قد نفثت في الضحية حياة الإله وقوته ، وأن هاتين الحياة والقوة ستنتقلان بطريقة خفية إلى الآكلين معه .

وكذلك كان الخمر يصب فوق الضحية، ويصب بعدئذ في كؤوس العابدين ، حكائهم بهذا كانوا يشربون مع الآلهة<sup>(٧٠)</sup> . وكانت فكرة الاشتراك المقدس



( شكل ١٨ ) « مراه أفريقي » من عرش لديري  
( متحف رومنة )

في الوجة الدينية هي الرابطة التي تربط هيئات الإخوان thiosol التي كان كثير من أصحاب الحرف والهيئات الاجتماعية يؤلفونها في أئينة (٧١) .

وقد ظلت التضحية بالحيوانات منتشرة في جميع أنحاء بلاد اليونان حتى قضت عليها المسيحية (٧٢) ، واستبدلت بها عن حكمة التضحية الروحية والرمزية المعروفة بالقداس . وأصبحت الصلاة أيضاً إلى حد ما بديلاً من التضحية حتى في العصور الوثنية . وكان استبدال تسيحات الحمد بالقرابين الدموية إصلاحاً يشهد بالخلق لفاعليه ، فهذه الوسيلة الهينة الرحيمة كان في استطاعة الإنسان وهو المحوط بالمصادقات والمآسى في كل خطواته أن يتأسى ويتقوى باستعانتته بما في العالم من قوى خفية .

## الفصل الخامس

### الخرافات

وكان بين قطبي الدين اليوناني العلوي والسفلي ، الأولمبي والأرضي ، بحر يزخر بالسحر والخرافات ، والأباطيل ؛ وكان من وراء العباقرة الذين سنشيد بذكرهم فيما يلي من صحائف هذا الكتاب ، كما كان من ورائهم ، جمهرة الشعب من الفقراء والسذج الذين لم يكن الدين في نظرهم إلا شراكا من الخوف لا سلما للأمال ؛ ولم يكن اليوناني العادي يكتفي بتصديق القصص التي تروى المعجزات كصعود منسيوس من بين الموتى ليحارب في مرثون ، أو تحويل الماء إلى خمر على يد ديونيسس<sup>(٧٢)</sup> ، ذلك أن أمثال هاتين القصتين تظهر عند جميع الشعوب ، وهي جزء من الشعر المباح المغتفر الذي ينبر به الخيال دياجير الحياة العادية . بل إن في وسع الإنسان أن يذهب إلى أبعد من هذا فيتغاضى عن حرص أثينة على أن تأوى فيها عظام ثيسوس ، وحرص اسپارطة على أن تسترد من تيجيا Tegeo عظام أرسيتيز Orestes<sup>(٧٣)</sup> ، فقد يكون ما يعزوه الحكام لهذه الآثار من قدرة على فعل المعجزات جزءا من فن الحكم وأساليبه . أما الذي كان ينبخ بكلكله على اليوناني الصالح فهو الأرواح المحتشدة من حوله التي يعتقد أنها متأهبة على الدوام لأن تعرف محباته ، وأن تتدخل في شئونه وتلحق به الأذى ، وأن في مقدورها أن تفعل به هذا كاه . وكانت هذه الشياطين لا تنفك تعمل لأن تنقمه ، وكان عليه أن يحذرهما ويتقأ أذاها على الدوام ، وأن يقيم الاحتفالات السحرية ليطردها بها .

وأوشكت هذه الخرافات أن تكون علما من العلوم الطبيعية ، وكانت إلى حد ما سوابق لنظرية الجرائم التي نعرفها اليوم . فقد كان معنى الأمراض جميعها عند اليوناني أن المريض قد حل فيه روح شريب ، وأن من يلمس الشخص

المريض بعدى بقذارته أو « يلبسه ذلك الروح الغريب نفسه » . وليست  
المكروبات والبكتريا إلا صوراً جديدة شائعة لما كان اليونان يسمونه  
كريس Keres أو الجن الصغيرة<sup>(٧٥)</sup> . ومن ثم كان الميت « نجساً » لأن  
الجنى قد استحوذ عليه كل الاستحواذ ؛ وكان اليوناني إذا خرج من بيت  
فيه ميت رش نفسه بالماء من إناء يوضع لهذا الغرض عند باب البيت ،  
وذلك لكي يطرد من جسمه الروح الذى غلب الميت على أمره<sup>(٧٦)</sup> . وقد  
امتدت هذه الفكرة عند اليونان إلى ميادين كثيرة لم يمتد إليها علمنا الحديث  
رغم ما يتأبنا من رهبة البكتريا وجزعنا منها . وكان الجماع من أسباب  
النجاسة ، كولادة الطفل أو القتل ( ولو كان غير متعمد ) ، وكان الطفل  
المولود نفسه نجساً . ولم يكن الجنون إلا حلول روح غريب في جسم المصاب  
به ، وكان يقال إن الجنون قد « خرج عن نفسه » ، وكان لا بد في هذه  
الحالات من القيام باحتفال يظهر فيه الشخص النجس . وكانت المنازل ،  
والهياكل ، والمدن بأجمعها في بعض الأحيان ؛ تطهر بالماء أو الدخان كما  
نظفها نحن الآن<sup>(٧٧)</sup> ، وكان وعاء به ماء نظيف يوضع عند مدخل كل  
هيكل ، حتى يطهر به نفسه كل قادم للتعبد ، أو لعل هذا الوعاء كان رمزاً  
يوحى إلى الناس بضرورة التطهر . وكان الكاهن نفسه خبيراً بأصول  
التطهير ، وكان في مقدوره أن يطرد الأرواح الشريرة من الأجسام بالضرب على  
إناء من البرنز ؛ أو بقراءة العزائم ، أو بالسحر أو الصلاة ؛ وحتى قاتل النفس  
عندما كان يمكن تطهيره إذا أجريت له الطقوس والمراسم الملائمة . ولم تكن  
التوبة ضرورة محتومة في مثل هذه الأحوال ، بل كل ما كان يحتاجه المتطهر هو  
أن يتخلص من الشيطان الشرير الذى تقمصه ؛ وذلك لأن الدين لم يكن أمر  
أخلاق بقدر ما كان فناً لمعالجة أمور الأرواح . غير أن كثرة المحرمات ومراسم  
التطهير قد أكسبت اليوناني المتدين مزاجاً عقلياً يشبه شياً عجيبياً الشعور بالخطيئة  
عند طائفة المتطهرين المتميزتين ( البيورتان ) من الإنجليز . وإن القول بأن اليونان

كانوا مجردين من فكرتى الضمير والحطيئة لا يكاد يبق له أثر عند من يقرأ كتب بندار وإسكلس ، وقد نشأت من اعتقاد اليونان بأنهم يعيشون فى جو من الأرواح مئآت من الحرفات لخصها ثيوفراستوس Theophrastus خليفة أرسو ، فى جزء من كتابه الأفعال فقال :

يبدو أن الإيمان بالحرفات ضرب من الجبن وخور العزيمة أمام القوة الإلهية . . . إن الرجل المخرف لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسع ، ويضع فى فمه قطعة من ورقة شجرة فى معبد ، فإذا ما اعترضت طريقه قطة لم يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار فى الشارع . وإذا أبصر أفعى فى بيته وكانت من النوع الأحمر استجد بديونيسس ، أما إذا كانت أفعى مقدسة فإنه يقيم لها ضريحاً من فوره فى البقعة التى أبصرها فيها ؛ وإذا مر بأحد الحجارة الملساء المقامة فى مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنيتته ولم يواصل السير فى طريقه إلا بعد أن ركع له ويتعبد ، وإذا قرض فأرجعة طعامه ، توجه إلى الساحر وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه بأن « يرسل الجعبة إلى الإسكاف ليرقعها » ، عمل بهذه النصيحة ، ومخلص من النذير المشثوم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وإذا وقعت عينه على رجل مصاب بالجنون أو بالصرع ، ارتجف وبصق على صدره (٨٠) .

وكان اليونان السذج يؤمنون ، ويعلمون أطفالهم أن يؤمنوا ، بأنواع لاهصر لها من العفاريث . وكانت مدن بأكلها تروع بين الفينة والفينة بما تنذر به أحداث غريبة كولد حيوانات مشوهة أو أناس مشوهين (٨١) . وكان الاعتقاد بوجود أيام مشثومة منتشراً إلى درجة تجعل من يؤمنون بهذه العقيدة لا يقدمون فى هذه الأيام على زواج ولا يعقدون فيها جمعية . ولا تجتمع فيها محكمة ، ولا يبدون فيها مشروعاً خطيراً . وكانت عطسة ، أو عثرة قدم ، تكفى فى بعض الأحيان للحمل العاطس أو العائر على العدول عن سفر أو عمل هام ، وكان خسوف جزئى يكفى

لوقف زحف الجيوش أو ردها على أعقابها ، وقد يؤدى إلى ختام الحرب  
بكارثة مدهمة . يضاف إلى هذا الاعتقاد بأن بعض الناس قد وهبوا قدرة  
عجيبة على إنزال النعمة ممن يشاءون ، فالأب إذا أغضب قد يصب على  
من أغضبه ، والسائل إذا أهمل قد يصب على من أهمله ، لعنة لا تقوم لها  
بعدها قائمة . وكان بعض الناس مهرة في فنون السحر ، فكان في وسعهم  
أن يمزجوا شراباً للعشق أو دواء مقويّاً للباه ، وكان في وسعهم أن يضعفوا  
ببعض العقاقير السرية قدرة الرجل على الجماع أو يعقموا المرأة فلا تحمل  
أبداً<sup>(٨٢)</sup> . وقد رأى أفلاطون أن شرائعه لا تكمل إلا إذا تضمنت تشريعاً  
يعاقب من يؤذى الناس أو يقتلهم بسحره<sup>(٨٣)</sup> . فليست الساحرات إذن  
من اختراع العصور الوسطى ، فها هي ذى ميديا في روايات يورپديز ،  
وسميثا Simætha في روايات ثيوكرينس وهما ساحرتان . وقصارى القول  
أن الخرافات من أقوى الظواهر الاجتماعية ، وأنها بقيت في خلال أحقاب  
المدنية لا تكاد تتغير في قواعدها وأصولها ولا في صورها وأشكالها .

## الفصل السادس

### المتنبئون والمتنبآت

لقد خيل إلى أهل ذلك الوقت الذين كانوا يعيشون في عالم مليء بالقوى العليا غير الطبيعية أن حوادث الحياة رهينة بإرادة الشياطين والآلهة ، ولم يكن أمام اليونان الذين يريدون معرفة هذه الإرادة إلا أن يلجئوا إلى العرافين والمتنبئين يستشيرونهم في أمرهم ، وكان هؤلاء ينبتون بالمستقبل بالنظر في النجوم : وتأويل الأحلام ، وبحث أحشاء الحيوان ، وزجر الطيور ، وكان العرافون المحترفون يؤجرون أنفسهم للأسر والحيوش والدول<sup>(٨٤)</sup> ، من ذلك أن نسياس Nicias استخدم قبل أن يسير حملته على صقلية طائفة كبيرة من مقربي القرابين وزاجري الطيور وقارئي الغيب<sup>(٨٥)</sup> . ولسنا نقول إن القواد لم يبلغوا كلهم من التقي ما بلغه هذا القائد مالك العبيد ؛ ولكنهم كلهم تقريباً لم يكونوا يقلون عنه إيماناً بالخرافات . وكان يظهر في البلاد في أوقات مختلفة رجال ونساء يدعون أنهم ممن يوحى إليهم أو ممن كشف الغطاء عن أبصارهم ، وكان في أبونيا بنوع خاص نساء يسمين سيبيلات Sibyls ( أي إرادة الله ) يدعن نبوءات يصدقها ملايين اليونان<sup>(٨٦)</sup> ، ويقال إن واحدة من أولئك السيبيلات تدعى هرفيلا Herophila طافت ببلاد اليونان مبتدئة من إريثرا Erythra ثم استقرت في كومي بإيطاليا حيث أصبحت أشهر سيبيلات زمانها ، وعاشت كما تقول الرواية المتواترة ألف عام ، وكان في أثينة ، كما كان في رومة ، عدد كبير من المتنبئين والمتنبآت ، وكانت الحكومة تحتفظ في هيو البلدية الأكبر برجال يحذقون تأويل أقوالهم<sup>(٨٧)</sup> . وكان في كثير من الهياكل المنتشرة في جميع أنحاء اليونان متنبئون عموميون ، ولكن أشهرهم وأجلهم قدراً في الأيام القديمة متنبئ زيوس في دودونا Dodone

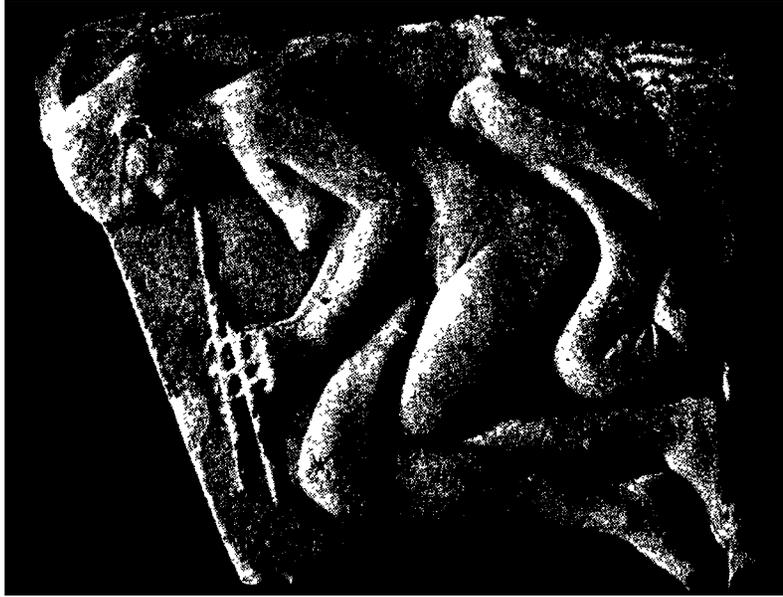
كما كان أشهرهم في العصور التاريخية متنبئ أبلو في دلفي . وكان اليونان و « البرابرة » يستشيرون هذا المتنبئ ، وحتى رومة نفسها كانت ترسل للرسل ليعرفوا إرادة الإله أو يوحوا إليه بهذه الإرادة . وكانوا يظنون أن النساء أكثر استعداداً لتلقى الوحي من الرجال ، ولذلك كانت ثلاث كاهنات لا تقل سن كل منهن عن نصف قرن يدربن على تعرف إرادة أبلو وهن في غيبوبة ، وكان غاز عجيب يخرج من فتحة في الأرض تحت الميكل ويعزوه الناس إلى تحلل الأنبياء التي قتلها أبلو في ذلك المكان . وكانت الكاهنة التي ستلقى الوحي تجلس على نضد عال ذي ثلاث قوائم موضوع فوق الشق ، وتستنشق الرائحة الكريهة المقدسة ، وتمضغ أوراقاً من تاج من أوراق الشجر المخدب ، فتغيب عن وعيها ويتقلص جسمها ، ثم ينزل عليها الوحي وهي في هذا الحال ، فتتلق بالفاظ متقطعة يترجمها الكهنة للشعب المستمع وكثيراً ما كان الجواب النهائي يحتمل تأويلات مختلفة بل متناقضة ، وبذلك تكون المتنبئة صادقة على الدوام مهما وقع من الحوادث (٨٨) . ولعل الكهنة هم والمتنبئة كانوا جميعاً ألعوبة في أيدي غيرهم ، وكانوا في بعض الأحيان يقبلون الرشا لينطقوا بما يجب الراشون أن ينطقوه به (٨٩) ، وكان صوت المتنبئة يتفق في أكثر الحالات مع صاحب النفوذ الأكبر في بلاد اليونان (٩٠) . أما إذا لم تكن هناك سلطة خارجية ترغم الكهنة على أن ينطقوا بما ترغب فيه ، فإنهم كانوا يلقون على اليونان دروساً قيمة في الاعتدال والحكمة السياسية ؛ فقد أعانوا على استقرار القانون وتثبيت دعائمه ، وكان لهم أثر كبير في تحرير الرقيق ، وقد اشترى عدداً كبيراً من الأرقاء لكي يحرروهم من الرق ؛ وإن كنا لا ننكر أنهم تفاضوا عن التضحيات البشرية بعد أن أخذ ضمير اليونان يتفر منها ، ولم يرفعوا صوتهم بالاحتجاج على ما كان يحدث فوق جبل أولبس من فساد خلقى . ذلك بأنهم لم يكونوا متقدمين على التفكير اليوناني ، ولكنهم مع ذلك لم يقفوا في سبيل هذا

التفكير ويعطلوه بالتعصب لمبادئ وآراء خاصة . وكانوا يخلعون على السياسة اليونانية التي تمليها على الحكام الضرورات الملحة ستاراً من رضاء القوى الإلهية ، وخلقوا شيئاً من الضمير الدولى والوحدة الأخلاقية بين مدن اليونان المبعثرة ، وبفضل هذا الأثر الموحد نشأ أقدم حلف بين الدويلات اليونانية ،

وكانت جامعة المنديبين اليونان - الجامعة الأمفكتيونية Amphictyonic -  
فى أول أمرها حلقاً دينياً مؤلفاً من « المقيمين حول » هيكى دمر القريب من ممر ترموبلى . وكانت أهم الدول التى تتألف منها هذه الجامعة تساليا ، ومجنيزيا ، وفثوتس Phithotis ، ودوريس ، وفوسيس ، وبووتية ، وعوبية ، وآخية . وكان مندوبوها يجتمعون مرة كل ستة أشهر ، فى الربيع فى دلفى ، وفى الخريف فى ترموبلى ، وقد تعهدوا بالألا يخرب بعضهم مدن بعض ، والألا يسمحوا بأن يقطع الماء عن أية واحدة منها ، والألا ينهبوا كنوز أبلو فى دلفى أو يسمحوا بنهبها ، وأن يقاتلوا أية أمة لا تحترم هذه المواثيق . تلك مبادئ لعصبة أمم حال دون قيامها تغلب الثراء والسلطان بين الدول ، وما طبع عليه الأفراد والجماعات من تنافس وتحاسد ، فقد كونت تساليا جهة من الدول الخاضعة لسلطانها ، وفرضت على هذه العصبة سيطرتها الدائمة<sup>(٩٢)</sup> . ونشأت عصب أخرى غيرها ، فكانت أثينة مثلاً عضواً فى عصبة كلوريا Cauria ؛ وكانت كل واحدة من هذه العصب المتنافسة تعمل لنشر السلام بين أعضائها . ولكنها أضحت على مر الزمن أداة لتدبير الدسائس وإثارة الحروب على غيرها من العصب .



(شكل ١٩) « عرش لدفن » للقاعدة أبي  
(متحف رومة)



(شكل ٢٠) « عرش لدفن » للقاعدة أسيري  
(متحف رومة)

# الفصل السابع

## الأعياد

إن لم يكن في مقدور الدين اليوناني أن يقضى على الحروب ، فإنه قد أفلح في تخفيف متاع الحياة الاقتصادية الرتيبة بما كان يقيمه من الأعياد الكثيرة التي قال فيها أرسطوفانيز : « ألا ما أكثر ما يقدم إلى الآلهة من ضحايا ؛ وما أكثر ما يقام لها من هياكل وتمائيل . . . ومواكب مقدسة ! إنا لنشهد في كل ساعة من ساعات العام أعياداً دينية وضحايا عليها أكابيل من الزهر ، تقرب للآلهة » (٩٣) . وكانت نفقات هذه الأعياد يقوم بها الأغنياء ، أما الدولة فكانت تقدم الأموال المقدسة *theorika* ، ومنها تزدى للشعب رسوم النخول لمشاهدة الألعاب أو المسرحيات التي كانت تمتاز بها هذه الأيام المقدسة .

وكان التقويم الأثيني تقويمياً دينياً في جوهره ، وكانت شهور كثيرة تسمى بأسماء ما يقام فيها من أعياد دينية ، ففي الشهر الأول شهر هكتمبيون *Hecatombaion* ( يولييه - أغسطس ) يقام عيد الكرونيا *Cronia* ( المقابل لعيد ساتورناليا الروماني ) ، وفيه يجتمع السادة والعبيد في وليمة بهجة طرية . وكان يقام في هذا الشهر نفسه كل أربعة أعوام عيد الجامعة الأثينية ، وتعتقد فيه مباريات ، وتقوم فيه ألعاب مختلفة الأنواع ، تقوم أربعة أيام ، يسير الأهليون جميعاً بعدها في موكب عام وقور ، يحملون إلى كاهنة أثينة الثوب الفخم الموشى الذي كان يوضع فوق تمثال إلهة المدينة ؛ والعالم كله يعرف أن هذا هو الموضوع الذي اختاره فدياس ليزين به طنط البارثون . وفي الشهر الثاني المتاجيتيون *Metageitnion* كان يقام المتاجيتينا وهو عيد صغير يقام تكراراً لأبلو . وفي الشهر الثالث شهر بوذرميون *Boedromion* كان سكان أثينة يخرجون إلى إلويسيس لإقامة الطقوس .

الكبرى الخفية . وفي الشهر الرابع شهر البيانيسيون Pyanepsion كان يحتفل بأعياد البيانيسيا والأسكوفوريا Oscophoria والشموفوريا Thesmophoria . وكانت نساء أثينة في هذا الشهر يعظمن دمر ثسموروس ( المشرعة ) بإقامة طقوس أرضية عجيبة يعرضن فيها رموزا لقضيب الرجل ويتبادلن فحش القول ، ويمثلن الذهاب إلى الجحيم والعودة منها ، ويبلون أن هذه الحفلات كانت رمزا للإخصاب في الأرض وفي الآدميين (٩٤) . وكان شهر ميمكتريون Maimakterion هو الشهر الوحيد الخالي من الأعياد .

وفي شهر بوسيديون Poseideon كانت أثينة تقيم عيد الإنالوا Italoa عيد بواكير الفاكهة ، وفي شهر جمليون Gamelion تحتفل بعيد اللينيا Lenaea تكريما لديونيسس . وفي شهر أنثسترن Anthesterion كانت تقام ثلاثة احتفالات هامة ، الطقوس الخفية الصغرى أو التمهيدية ، والديازيا أو التضحية لزيوس ملكيوس ، والأنستريا أو عيد الزهور ، وهو أهم الأعياد الثلاثة . وفي هذا العيد الربيعي الذي يقام تكريما لديونيسس ويدوم ثلاثة أيام كاملة كانت الخمر تجرى كالأنهار ، ولم تكن ترى إلا سكارى على درجات متفاوتة من السكر (٩٥) ؛ وكان الناس يتنافسون أيهم يفوق غيره في كثرة الشراب ، والشوارع تعج بالحياة والمرح . وكانت زوجة كبير الأركونين تركب عربة بجوار تمثال ديونيسس وتزوج به في الهيكل رمزا إلى اتحاد الإله بأثينا . وكان يسرى في هذه الطقوس المرححة قليل من الرهبة والعمل على استرضاء الموتى وكف أذاهم ؛ وكان الأحياء يتناولون في وقار وهدوء وجبة من الطعام لإحياء لذكري آبائهم ، ويتركون لهم آنية مملأى بالطعام والشراب ، فإذا انقضى العيد أخذ الناس يطردون أرواح الموتى من الدور بصيغة يتلونها ويقولون فيها : « أخرجني من الباب أيها الأرواح ! لقد انتهى عيد أنستريا » - وقد أصبحت هذه الألفاظ مثلا يقال عند ما يراد التخلص

من المتسولين الكثيرى الإلحاح (\*) .

وفي الشهر التاسع شهر إلابيوليون Elaphebolion يقع عيد ديونيزيا الكبير الذى أوجده بيستراتس فى عام ٥٣٤ . وفى ذلك العام جعل ثيسيس المسرحية فى أثينة جزءاً من هذا الاحتفال . وكان ذلك فى أواخر شهر مايو والربيع مقبل والبحر هادئ صالح للملاحة ، فأقبل التجار والزائرون حتى ازدحمت بهم المدينة وتضاعف عدد من يشاهدون الحفلات والمسرحيات . وأوقفت جميع الأعمال ، وأعطت دور القضاء ، وأطلق سراح المسجونين ليستطيعوا الاشتراك فى الحفلات . وخرج الأثينيون على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم فى أزهى الملابس ليشاركوا فى الركب الذى جاء بتمثال ديونيسس من إليويثزا لوضعه فى مقره . فركب الأغنياء العربات ، وسار الفقراء راجلين ، ومن ورائهم قافلة طويلة من الحيوانات تلهدى إلى الآلهة . واشتركت فى هذا الموكب فرق من المغنين أقبلت من مدن أتكا تبارى فى الغناء والرقص . وفى الشهر العاشر شهر منيكيون Munychion كانت أثينة تحتفل بعيد النيكييا ، وكانت تحتفل كل خمسة سنين بعيد البرورونيا Brauronia تكريماً لأرتميس . وفى شهر ثراجليون يقع الثراجليا أى عيد حصاد الحب . وفى الشهر الثانى عشر شهر سكروفيون Skirophorion كان يحتفل بأعياد اسكروفوريا ، وأرتوفوريا Arretophoria ، ودبوليا Dipolia وبوفونيا Boughonia . ولم تكن هذه الأعياد كلها أعياداً سنوية ، ولكنها ، حتى مالم يكن يحتفل به منها إلا كل أربع سنين ، كانت تخفف كثيراً من كدح الحياة اليومية .

وكان لغير أثينة أيام مقلسة شبيهة بهذه الأيام ، وكان كل موسم من مواسم الزرع أو الحصاد فى الريف يستقبل بمظاهرة البهجة والمرح . وكان أعظم من هذه الأعياد كلها أعياد الجامعة الهيلينية ، والحفلات العامة الجامعة Panegyreis ،

(\*) لا يزال الناس فى أنحاء كثيرة من أوروبا يعتقدون أن الأرواح تعود إلى الأرض كل عام ، وأن عليهم أن يولوا لها ربيحة فى « عيد جميع الأرواح » (٩٦) .

ومن هذه الأعياد عيد الجامعة الأيونية Panionia في ميكالي Mycale و عيد أبلو في ديلوس ، والعيد البيثي Phthian في دلفي ، و عيد البرزح Isthmiu في كورنثة ، والعيد النمبي Nemean في أرجوس ، والعيد الأوابي في إليس . وكانت تقام في هذه الأعياد مباريات رياضية بين الدول المختلفة ، ولكنها كانت في أساسها أياما مقدسة . فقد كان من حسن حظ بلاد اليونان أن كان دينها من العناصر البشرية - وأن كان فيها في آخر أيامها من العناصر الإنسانية الرحيمة - ما يكفي لاقتراحه بالفن ، والشعر ، والموسيقى ، والألعاب ، واقتراحه آخر الأمر بالأخلاق اقتراحاً جعله مصدر السرور والإبداع .

## الفصل الثامن

### الدين والأخلاق

يبدو لأول وهلة أن الدين اليوناني لم يكن ذا أثر كبير في الأخلاق ، فقد كان في أصله طائفة من قواعد السحر لا من قواعد الأخلاق القويمة ، وبقى إلى حد كبير على هذا النحو إلى آخر أيام اليونان . وكان لصحة المراسم والطقوس في هذا الدين شأن أكبر مما للسواك القويم ، ولم تكن الآلهة نفسها ، الأولمبية منها والأرضية ، مثلاً طيباً في الأمانة والعفاف ودماثة الأخلاق . وحتى الشعائر الإلوسينية الخفية ، كانت تجعل التطهير بالمراسم والطقوس لا طهارة النفس وكرم الأخلاق هو العامل الأكبر في النجاة من العذاب وإن كنا لا ننكر أنها كانت تبعث في النفوس آمالاً كباراً . وفي ذلك يقول ديوجين الساخر : « سيكون اللص بتيكيون Pataikion بعد موته أسعد حالاً من أجسلوس Agesilaus أو أبامينداس لأن بتيكيون قد كرس في إلوسيس » (٩٧) .

لكن الدين اليوناني ، رغم هذا ، كان عوناً خفياً للشعب وللدولة في أكثر الشؤون الأخلاقية حيوية . من ذلك أن مراسم التطهير وإن كانت كلها مظاهر خارجية كانت ترمز إلى الأخلاق القويمة . كذلك كانت الآلهة تعين على الفضيلة وإن كانت هذه المعونة عامة غير دقيقة ، وغامضة ، وغير مطردة . ذلك أنها كانت تغضب على الشرير وتنتقم من المتكبر ، وتحمي الغريب ، وتستجيب لمن يتوسل إليها ، وتحمي بجزوتها قدسية الإيمان . فهم يقولون لنا إن ديكى Dike كانت تعاقب على كل ظلم ، وإن بوميندس Eumenides الرهيب كان يقتنى

أثر القاتل ، كما يفعل أرسنيز ، حتى يجن أو يموت . وكان الدين يخلع القدسية والكرامة على أهم أحداث الحياة الإنسانية وأنظمتها - كالمولد ، والزواج ، والأسرة ، والعشيرة ، والدولة - ، وينتشلها من فوضى الشهوات العاجلة . وكانت عبادة الموتى وتكريمهم يربطان الأجيال المتعاقبة برباط من الواجبات المستقرة المتصلة . وبفضلهما لا تقتصر الأسرة على أن تكون زوجا وزوجة معهما أطفال ، أو مجموعة أبوية من الآباء والأطفال والأحفاد ، بل تصبح فضلا عن هذا اتحاداً مقدساً وتتابعاً مستمراً للدم والنار ، ترجع أصولها إلى الماضي السحيق وتمتد أغصانها إلى المستقبل البعيد ، وترتبط الموتى والأحياء ومن لم يخرجوا بعد إلى هذا العالم برباط مقدس أقوى من رباط الدولة مهما قويت . وكان إنجاب الأطفال واجباً مقدساً حوتى يفرضه الدين على الأحياء ، ثم لا يكتفى بهذا بل يشجع على النسل بأن يدخل في روع من لا أبناء له أنه قد لا يجد من يوارى جسمه التراب أو يعنى بقره بعد وفاته . وقد ظل اليونان يتناسلون بكثرة خيارهم وشرارهم على السواء طالما كان للدين أثر في حياتهم ، وكان من نتيجة هذه الكثرة مضافاً إليها الانتخاب الطبيعي الصارم أن احتفظ اليونان بقوتهم ومميزاتهم . وكان الدين والوطنية تربطهما مئات من الطقوس الرهيبة المؤثرة ، فكان أكثر الآلهة والإلهات احتراماً في الاحتفالات العامة بطل المدينة المؤله أو بطلتها المؤله ؛ وكان كل قانون وكل اجتماع للجمعية أو للورد القضاء ، وكل عمل خطير يقدم عليه الجيش أو الحكومة ، وكل مدرسة وجامعة ، وكل هيئة اقتصادية أو سياسية ، كانت هذه كلها تخيط بها الاحتفالات والنصرعات الدينية . وبهذه الوسائل كلها كان الدين اليونانى يستخدم لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد الغريزية . وقوت الفنون والآداب والفلسفة هذا الأثر الدينى فى بادئ الأمر ، ثم عملت بعدئذ

على إضعافه ؛ فقد أخذ بندار ، وإسكلس ، وسفكلز ينفتون حماسهم الأخلاقية أو فطنتهم في العقائد الأولمبية ؛ ورفع فدياس من مقام الآلهة بما خلعه عليها من جمال وجلال ؛ وجمع فيثاغورس وأفلاطون بين الفلسفة والدين ، وأيدا عقيدة الخلود ليجعلها باعثاً قوياً على حسن الخلق . لكن بروتجراس كان يشك في الآلهة ، وسقراط يتجاهلها ولا يابها ، ودمقريطس يمجدها ، ويورپديز يسخر منها ، وانتهى الأمر بأن دكت الفلسفة اليونانية ، عن غير قصد منها ، قواعد الدين الذي صاغ الحياة الأخلاقية في بلاد اليونان في القالب الذي وجدت فيه .